التفسير العلمي عند الطاهر بن عاشور
بين المقـاصد والضـوابط
((دراسة وصفية تحليلية تطبيقية))

إعداد

د/ علي عبدالحميد عيسى عثمان

أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن الكريم

بكلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان

التفسير العلمي عند الطاهر بن عاشور بين المقاصد والضوابط ((دراسة وصفية تحليلية تطبيقية))

علي عبد الحميد عيسى عثمان

قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم، كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني : Aliosman.@alazhar.edu.eg

الملخص:

لمَّا كانت لغة العصر هي العلوم والمعارف والمخترعات، كانت الحاجة ماسة للتفسير العلمي ومزيد الاعتناء به، وإذا كان المفسرون أولوا عناية تتفاوت قلة وكثرة بهذا النوع من التفسير كوجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم في العصر الحديث، فإن الطاهر بن عاشور –رحمه الله– هو أهم المساهمين فيه، فله إسهامات تستقل بمؤلفات، ويتميز التفسير العلمي عند الطاهر –في الأعم الأغلب– بالالتزام بالضوابط العلمية التي توافق عليها العلماء حتى يكون التفسير العلمي مقبولاً وصحيحًا، وأهمها اللغة، وموافقة الحقائق العلمية، والابتعاد عن النظريات التي تخضع للتغيرات. **وتهدف الدراسة إلى:** التعريف بالتفسير العلمي كنوع من أنواع التفسير المعاصر عند الطاهر، وتفصيل عنايته به كمقصد من مقاصد التفسير وغاياته، وما تميز به من ملكات وأدوات في هذا الفن جعلته قائمًا على موسوعة لغوية، وانفرادات تميز بها، مع إظهار مدى التوافق والاختلاف بينه وبين جمهور المفسرين. **وكان من نتائج الدراسة:** الكشف عن موسوعة علمية كبيرة بين طيات تفسير «التحرير والتنوير»، لا تجدها مستوفاة ومجمعة بهذا التفصيل والإتقان إلا عند الطاهر، وأجمل وأدق ما فيها أنها قائمة على ضوابط اللغة وأصول التفسير في الأعم الأغلب. مع ما أفاد الباحث من التعرف –وصفيًا وتحليليًا وتطبيقيًا– على ضوابط التفسير العلمي، ومتى يقبل، ومتى يرفض، وأنه إذا تحققت ضوابطه فإنه من معالم التجديد في العصر الحديث، مع ما فيه من لون إعجازي يستحق التأمل والبحث والدراسة.

الكلمات الافتتاحية : العلمي– المقاصد– الضوابط– وصفية– دراسة– تحليلية– تطبيقية.

The scientific interpretation according to Al-Taher bin Ashour between the purposesand the regulations. "An Applied Analytical Descriptive Study"

Ali Abdel Hamid Eissa Osman
Department of Interpretation and Sciences of the Noble Qur'an, Al-AZhar For Girls College,10th of Ramadan, Al-Azhar University, Egypt
E-mail : Aliosman.@alazhar.edu.eg

Abstract :
Since the language of the age is science, knowledge and invention, there was an urgent need for scientific explanation and more attention to it.And if the interpreters paid attention to this type of interpretation as a facet of the miracle of the Noble Qur'an in the modern era, varying from a few and a great deal. Al-Taher Bin Ashour - may God have mercy on him - is the most important contributor to it.He has independent contributions and books.The scientific interpretation of Al-Taher is characterized - in general and for the most part - by adhering to the scientific controls that scientists agree to so that the scientific explanation is acceptable and correct, the most important of which is the language, the agreement of scientific facts, and distancing from theories that are subject to changes. **The study aims to:** Introducing scientific interpretation as a type of contemporary interpretation by Al-Taher and the detail of his attention as one of the purposes and aims of interpretation. And what distinguished him from the faculties and tools in this art made him based on a linguistic encyclopedia and singularities that distinguished him while showing the extent of compatibility and difference between him and the majority of interpreters. **The results of the study:** Uncovering a large scientific encyclopedia between the folds of interpretation of liberation and enlightenment that you do not find complete and collected in this detail and perfection, except Al-Taher. The most beautiful and accurate thing is that it is based on the controls of language and the principles of interpretation generally. The researcher reported learning - descriptive, analytical and applied - on the controls of scientific interpretation, when it is accepted and when it is rejected .If the controls are achieved, the will be the features of renewal in the modern era, with its miraculous color that deserves contemplation, research and study.

Keywords: Scientific - Objectives - Controls - Descriptive - Study - Analytical – Applied.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين بشيرًا ونذيرًا، وجعل القرآن الكريم معجزة عقلية ذهنية علمية، معجزة اكتملت فيها كل نواحي الإعجاز وجوانبه في البيان، والإخبار، والنظم، واللغة، والبلاغة، وما جرى وما هو آت..، والصلاة والسلام على البشير النذير المنزل عليه هذا القرآن المعجز دليلاً على صدقه، وحجة لنبوته، وأودع فيه من العلوم والمعارف ما تحمل المرء على تدبرها ليل نهار، وأن يقطع في معرفتها الفيافي والقفار... وبعد:

فلقد كثرت الدراسات حول القرآن الكريم، خدمةً له، وكشفًا لمكنوناته، واستخراجًا لدرره، فمن بحثٍ في إعجازه، إلى بحثٍ في علومه ومعارفه المتنوعة، حتى غدا كل نوع من الدراسة فيه علمًا مستقلاً قائمًا بذاته، وهذه الدراسات في حد ذاتها فيها بيان وجلاء لأسرار الإعجاز القرآني الذي لا يستقصي معانيه فهم الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق. ومن أهم هذه الدراسات دراسة إعجاز القرآن الكريم والكشف عن جوانبه مع تنوعها وكثرتها، فكان منها الإعجاز البياني، والإعجاز التأثيري، والإعجاز النفسي، والإعجاز الصوتي، والإعجاز العددي، والإخبار بالمغيبات، والإعجاز التشريعي، والتربوي، والجغرافي، إلى غير ذلك من أنواع الإعجاز التي لن تنتهي ما دامت الحياة والأحياء.

فأحببت أن أسهم بشيء من هذه الدراسات خدمة لكتاب الله –تعالى–، فكان بحثي هذا في التفسير العلمي –كنوع آخر من أدق أنواع الإعجاز القرآني– إيمانًا أن القرآن الكريم مع أنه كتاب هداية، وإرشاد، وتوجيه، وتربية، ودستور أمة، وسعادة دارين، وإضاءة للعقول، وطمأنينة للقلوب، فهو مع ذلك لا ينفصل عن العالم التجريبي، بل يعرض إلى حقائق علمية تشمل الوجود بأسره، دلالة على الإعجاز من جانب، وحملاً على الإيمان بالله والتعرف على قدرته –سبحانه– لا سيما لمن لا يؤمن بالحقيقة إلا باليقين التجريبي.

وليست مساحة الآيات القرآنية في الحديث عن الآيات العلمية بالأمر القليل، بل ذكر القرآن مئات الآيات والإشارات لقضايا علمية في جميع العلوم والمعارف، منها ما تم اكتشافه، ومنها ما ستظل البشرية في بحث دؤوب للكشف عنه.

ولأهمية هذا الموضوع، شمَّرت عن ساعد الجد للوقوف على نوع جدير بالدراسة من أنواع الإعجاز القرآني، وهو التفسير العلمي للقرآن الكريم، في بحث أسميته: «**التفسير العلمي عند الطاهر بن عاشور بين المقاصد والضوابط، دراسة وصفية تحليلية تطبيقية**».

وتشتمل مقدمة البحث على النقاط التالية:

أولاً: أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- صلته بالقرآن الكريم، مما يجعل الباحث يتعرف على كثير من علومه ومعارفه ويمكنه من التعمق فيها.

٢- الوقوف على قضية من أخطر القضايا المتعلقة بكتاب الله –تعالى–، وهي التفسير العلمي، وما لها، وما عليها، لاسيما وحديث القرآن الكريم عن الأمور العلمية والقضايا الكونية –العلم التجريبي– لم تكن معروفة عند العرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة، ولا عند غيرهم من الأمم في ذلك الحين، ولم يكشف عنها العلم إلا من وقت قريب، فوجودها دليل قاطع على إعجاز القرآن الكريم وصدقه، وبهذا كان حديث القرآن عن القضايا العلمية والكونية وسبقه بها وجهًا من وجوه الإعجاز، حتى اعتبره بعض الباحثين أبرز وجوه الإعجاز لهذا الزمان، ويفوق وجوه الإعجاز الأخرى بسبب التقدم العلمي المذهل، والانبهار العالمي بهذا العلم(١).

٣- عدم وجود بحث مستقل تحدث عن هذا النوع من الإعجاز عند الطاهر بن عاشور في كتاب أو مؤلف، لاسيما والوقوف عليها يصعب لوجوده في أماكن متفرقة ومواضع متعددة.

٤- إبراز المنهج التفصيلي للتفسير العلمي عند الطاهر بن عاشور، مع تطبيق تفسيراته العلمية على ضوابط التفسير العلمي، ودلالات الألفاظ القرآنية.

(١) ينظر: البيان في إعجاز القرآن، صلاح عبدالفتاح الخالدي، ص٢٦٠، بتصرف، الناشر: دار عمان للنشر والتوزيع، ١٩٩٢م.

أما أسباب اختيار الطاهر بن عاشور: فكثيرة، أهمها:

١- تميز الطاهر بن عاشور عن غيره من المفسرين في الحديث عن هذا النوع من الإعجاز، وقد قال -رحمه الله- معبرًا عن ذلك: «وقد ميزت ما يفتح الله لي من فهم في معاني كتابه، وأجلبه من المسائل العلمية، مما لا يذكره المفسرون، وإنما حسبي في ذلك عدم عثوري عليه فيما بين يدي من التفاسير في تلك الآية خاصة...، ولست أدعي انفرادي في نفس الأمر، فكم من كلام تنشئه تجدك قد سبقك إليه متكلم، وكم من فهم تستظهره وقد تقدمك إليه متفهم»(١). فتفسير الطاهر إتمام لما نقص فيه غيره من المفسرين في هذا الفن، دون هضم حقوقهم.

٢- ما للطاهر بن عاشور من شخصية علمية، واتجاه خاص، حمله على عدم التأثر فقط بأقوال السابقين في جمع آرائهم، بل كان يخالفهم، وينتقد آرائهم، ويناقش عباراتهم، ويدلي برأيه الخاص لاسيما في التفسير العلمي للآيات القرآنية، وإن خالف رأيه ما عليه جمهور المفسرين(٢).

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٧/١، الناشر: الدار التونسية للنشر.

(٢) ولعل هذا هو سر استغراق تأليفه تسع وثلاثين سنة وستة أشهر. فقد كانت بداية تأليفه للتفسير عام ١٣٤١هـ، وفرغ منه عام ١٣٨٠هـ. وبعد فراغه منه ختمه بكلمات مؤثرة قال فيها:

وإن كلام رب الناس حقيق بأن يخدم سعيًا على الرأس، وما أدى هذا الحق إلا قلم مفسر يسعى على القرطاس، وإن قلمي استن بشوط فسيح، وكم زجر عند الكلال والإعياء زجر المنيح، وإذ قد أتى على التمام فقد حق له أن يستريح..، وأرجو منه -تعالى- لهذا التفسير أن ينجُد ويغور، وأن ينفع به الخاصة والجمهور، ويجعلني به من الذين يرجون تجارةً لن تبور، فكانت مدة تأليفه تسعًا وثلاثين سنة وستة أشهر.

ينظر «التقريب لتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور»، محمد بن إبراهيم الحمد، ص٣٥، بتصرف، الناشر: دار ابن خزيمة.

والمنيح: الذي لا غُنْمَ له ولا غُرْم. "تهذيب اللغة"، الأزهري، ١٤١/٢، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى.

ينجد: نَجَد الأمر ينجُدُ نَجودًا: أي: استبان، فهو ناجد. "العين"، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ٤٧٢/١، الناشر: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

يَغُور: إذا أتى بخير ونفع... ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الحموي، ١٠١٥/٧، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت.

٣- دراسة التفسير العلمي بأسلوب عصري يجمع بين تراث القدامى واستنباط المعاصرين، ولا تكتمل هذه الدراسة إلا في «**التحرير والتنوير**» خاصة.

٤- ما تميز به الطاهر بن عاشور في أمور تجعله جديرًا بالدراسة في هذا الفن، أهمها: المعاصرة، وانفراده بنكت لم يسبق إليها، وأنه –في نظري– أكثر المفسرين المؤيدين والمكثرين لهذا النوع من الإعجاز القرآني «التفسير العلمي» في تحريره.

ثانيًا: أهداف الموضوع:

١- إكمال الدراسات السابقة التي عنيت بتفسير «**التحرير والتنوير**».

٢- الوقوف على مرونة الأسلوب القرآني في التعبير عن الحقائق العلمية، بحيث يتحملها الأسلوب، وتوافقها اللغة، ويجملها السياق.

٣- التعرف بدراسة وصفية تحليلية تطبيقية على ضوابط التفسير العلمي التي إن تحققت كان مقبولاً، وإن لم تتحقق كان مرفوضًا، ليكون تفسيرًا علميًا لا إفراط فيه ولا تفريط.

٤- عدم حصر دلالة الآية على حقيقة مفردة، بل إبقاؤها بين دلالاتها المتنوعة التي تتفق والمعنى.

٥- إثبات أن الحقائق القرآنية والعلمية لا يتصادمان بل يتكاملان.

٦- تنمية مهارات الباحث والبناء الجيد لشخصيته من خلال هذا البحث، بما فيه من علوم وأدوات تفيد الباحث عامة، والمتخصص في التفسير خاصة.

ثالثًا: الدراسات السابقة:

لمَّا كان تفسير الطاهر بن عاشور «**التحرير والتنوير**» موسوعة علمية فريدة، فقد اهتم به الباحثون اهتمامًا بالغًا، إما بدراسات حول المفسر ومنهجه، أو التفسير وفرائده.

ولعل السبب في ذلك: أنك إذا طالعت هذا التفسير المبارك فإنك تجد نفسك أمام تفسير «نقدي تجديدي»، فلم يقف الإمام من تراث القدامى موقف المقلد المتبع، بل تطلع إلى الإفادة والإضافة، فيقول:

«ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر آخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون، وفي كلتا الحالتين ضر كثير، وهناك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده، وحاشا أن ننقصه أو ننبذه، علمًا بأن غمض فضلهم كفران للنعم، وجحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمر»[1].

ولا أدل على هذه الرؤية من اسم تفسيره: «**تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد**»، الذي اختصره فيما بعد باسم «**التحرير والتنوير في التفسير**»[2].

وهذا المنهج المميز هو الذي جذب إليه أنظار الباحثين، فكثرت الأبحاث فيه، وسأقتصر على الأبحاث والدراسات القريبة من موضوع بحثي:

- التفسير العقلي للقرآن الكريم عند الطاهر بن عاشور، رسالة ماجستير، إعداد: عويس عبدالرحيم، جامعة عين شمس، كلية الآداب، ٢٠٠٢م.
- إعجاز القرآن الكريم عند الإمام ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، "عرضًا ودراسة"، تأليف: محمود بن علي بن أحمد البُعداني، جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

أما الدراسات التي تتعلق بالتفسير العلمي على العموم، فتنحصر فيما يلي:

- التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق، رسالة دكتوراه، د. هند شلبي، تونس، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.
- نحو تفسير علمي للقرآن، أحمد الوائلي، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٧/١.
(٢) السابق، ٨/١.

- الكون والرؤية العلمية في القرآن الكريم والأديان السماوية الأخرى، دراسة مقارنة، رسالة ماجستير، أشرف أحمد محمد عماشة، جامعة المنوفية، كلية الآداب، قسم الفلسفة، سنة ٢٠٠٣م.

وهي دراسات وأبحاث تعنى بتعريف هذا النوع من الإعجاز مع ضرب بعض الشواهد القرآنية عليه.

أما دراستي فتعنى بالوقوف على هذا النوع من الإعجاز بتفصيل وتتبع للإمام الطاهر بن عاشور، وتفصيل آراءه في التفسير العلمي وتقسيمها على مباحث ومطالب، مع بيان ما تميز به من انفرادات لها إشارات عند بعض المفسرين، أو انفرادات تامة لم يسبق إليها، مع التزامه فيها بضوابط التفسير العلمي وأهمها اللغة، فهي دراسة جديدة في بابها لم تتناولها الدراسات السابقة مع ما لها من أهمية في ميزان البحث العلمي.

رابعًا: منهج البحث: وصفيًا، تحليليًا، تطبيقيًا.

خامسًا: إجراءات البحث(١):

١- جمع أقوال الطاهر بن عاشور في التفسير العلمي للآيات القرآنية وتقسيمها على مباحث ومطالب مع مراعاة:

أ- إذا كان في الكلام إطالة، وليس له علاقة بمسألة البحث، فإني أضع مكانه نقطًا، دلالة على الحذف.

ب- إذا تكرر كلام الإمام في موضع بعينه أكتفي بكلامه في الموضع الأول فقط.

٢- مقارنة رأي الإمام في التفسير العلمي بكلام المفسرين في الموضع الواحد – لا سيما إذا كان لهم فيه تفسير علمي- لإظهار:

أ- التوافق بين الآراء إذا كانت متوافقة، وإظهارها في أعلى درجات البيان.

ب- إبراز رأي الإمام في المسائل التي انفرد فيها عن جمهرة المفسرين –وما أكثرها.

(١) إجراءات البحث: يراد بها: الأسلوب المستخدم في البحث أيًا كان منهجه. "أصول البحث العلمي"، د. جابر جاد نصار، ص١٩، الناشر: دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٣- عرض التفسير العلمي للإمام على ضوابط التفسير العلمي الصحيح، وأهمها اللغة، والتوافق مع دلالات الألفاظ، ومرونة المفردة القرآنية، والاتفاق مع الحقائق العلمية.

٤- رتبت الأعلام على مدار البحث على حسب تاريخ الوفاة، متبعًا التقويم الهجري في الجميع، ليعيننا ذلك على الوقوف على تاريخ ميلاد الأفكار، ومدى تطورها.

٥- صدرت أغلب قضايا البحث بتمهيد، أعرف فيه ما يحتاج إلى تعريف.

٦- توثيق المادة العلمية بالتعليق في الحاشية وفق الآتي:

أ- عزو الآيات إلى سورها مع بيان أرقامها.

ب- تخريج الأحاديث والآثار من الكتب المعتمدة في ذلك، فإذا كان الحديث في الصحيحين، أو في أحدهما اكتفيت به لصحتهما، وإن لم يكن فيهما فإني أخرجه من مظانه في كتب الحديث الأخرى، وأذكر كلام أهل العلم في تحقيقه.

ج- التعريف بغريب الألفاظ بالرجوع إلى كتب اللغة المعتمدة.

د- توثيق النقول والأقوال بالإحالة إلى مصادرها.

هـ- وضعت خاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث، ثم التوصيات.

و- عمل فهارس لمادة البحث وتشتمل على:

- ثبت المصادر والمراجع. - فهرس الموضوعات.

سادسًا: مشكلات البحث:

- صعوبة جمع أقوال الطاهر بن عاشور فيما يتعلق بالتفسير العلمي مع تنوعها واتساعها، وترتيبها على مباحث ومطالب.
- صعوبة وضع منهج متكامل يبرز دور الطاهر بن عاشور -رحمه الله- في التفسير العلمي، والوقوف على ملكاته الفنية في هذا الفن.
- صعوبة المقارنة بين ما وصل إليه الطاهر بن عاشور وبين ما وصل إليه العلم التجريبي، ومدى التوافق والاختلاف بينهما.

- صعوبة تحليل التفسيرات العلمية للطاهر بن عاشور بضوابط التفسير العلمي، والتحقق من استيفاء التفسيرات لهذه الضوابط بالدليل والبرهان، وقبول دلالات الألفاظ القرآنية لهذه التفسيرات العلمية لتطمئن النفس إلى صحتها وقبولها.

سابعًا: خطة البحث:

يشتمل هذا البحث على مقدمة ومبحثين، وخاتمة، وفهارس:

المقدمة: وتشتمل على:

أولاً: أهمية الموضوع وأسباب اختياره. **ثانيًا:** أهداف الموضوع.

ثالثًا: الدراسات السابقة. **رابعًا:** منهج البحث.

خامسًا: إجراءات البحث. **سادسًا:** مشكلات البحث.

سابعًا: خطة البحث.

المبحث الأول: التفسير العلمي وتحرير المصطلحات:

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التفسير العلمي والألفاظ ذات الصلة.

المطلب الثاني: التفسير العلمي بين التاريخ والضوابط.

المطلب الثالث: التفسير العلمي بين القبول والرفض.

المبحث الثاني: التفسير العلمي عند الطاهر بن عاشور بين المقاصد والضوابط:

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: التفسير العلمي لآيات السماء.

المطلب الثاني: التفسير العلمي لآيات المجموعة الشمسية.

المطلب الثالث: التفسير العلمي لآيات الجبال.

المطلب الرابع: التفسير العلمي لآيات متنوعة.

الخاتمة: ثم ذيلت البحث بخاتمة تشتمل على أهم النتائج التي توصلت إليها، والتوصيات التي تزيد الباحث –عامة، والمفسر خاصة –ثراءً.

الفهارس: وتشتمل على ثبت المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وفي الختام: أسأل اللهَ العظيم أن يجعل هذا العمل صالحًا، ولوجهه الكريم خالصًا، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: التفسير العلمي وتحرير المصطلحات

ويشتمل على ثلاثة مطالب

المطلـــب الأول : التفسير العلمي والألفاظ ذات الصلة

المطلب الثاني : التفسير العلمي بين التاريخ والضوابط

المطلب الثالث : التفسير العلمي بين القبول والرفض

المطلب الأول

التفسير العلمي والألفاظ ذات الصلة

تعددت تعاريف المحققين لهذا اللون من التفسير كمصطلح حديث في الأوساط العلمية، كما تنوعت تعبيراتهم في تسميته: فأطلق عليه البعض: «**التفسير العلمي**»(١)، وسماه آخرون: «**الاتجاه العلمي في التفسير**»(٢)، وسماه فريق ثالث بـ: «**التفسير العصري**»(٣).

أمَّا من جهة التعريف: فلقد تعددت رؤى العلماء له وتنوعت:

فعرَّفه البعض: بأنه: نوع من التفسير للقرآن الكريم يرمي إلى جعل القرآن الكريم مشتملاً على إشارات إلى كثير من أسرار الطبيعة التي كشف عنها العلم الحديث(٤).

وعرَّفه آخرون: بأنه: التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية(٥).

وعرَّفه فريق ثالث: بأنه: تفسير يذهب قائله إلى استخراج جملة العلوم القديمة والحديثة من القرآن، ويرى في القرآن ميدانًا يتسع للعلم الفلسفي والإنساني في الطب والتشريع والجراحة والفلك والنجوم والهيئة وخلايا الجسم وأصول الصناعات ومختلف المعادن، فيجعل القرآن مستوفيًا بآياته لهذه الحيثيات، ويحكم الاصطلاحات العلمية في القرآن، ويجتهد في استخراج هذه العلوم(٦).

---

(١) ينظر: الإسلام والكون، د. عبدالغني عبود، ص١٧، الناشر: دار الفكر العربي، الطبعة الثانية.

(٢) ينظر: التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ٣٨٠/٤، الناشر: دار الكتب الحديثة، القاهرة، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، ص٢٨٧، طبعة القاهرة.

(٣) ينظر: القرآن والتفسير العصري، د. بنت الشاطئ، ص٢٠، دار المعارف، مصر.

(٤) التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، محمد هادي معرفة، ٤٤٣/٢، الناشر: الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.

(٥) التفسير والمفسرون، ٣٨٠/٤.

(٦) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ص٢٨٧.

وفريق رابع: يرى أن هذا النوع من التفسير يقوم أصلاً على شرح وإيضاح الإشارات القرآنية التي تشير إلى عظيم خلق الله –تعالى–، وكبير تدبيره وتقديره(١).

وفريق خامس: يعرفه بأنه: الآيات ذات المضامين العلمية من الزاوية العلمية، وتفسيرها تفسيرًا علميًا، بالاستعانة بالعلوم والمعارف والمكتشفات الحديثة في توسع مدلولها(٢).

وفريق سادس: بأنه: تفسير آيات القرآن التي تتحدث عن العلوم الكونية بما يستنبط من علومها، وبيقينات المكتشفات العلمية(٣).

تأملات في التعاريف السابقة:

يستنتج من التأمل في التعاريف السابقة أمور، أهمها:

- اشتمال القرآن الكريم على كثير من الإشارات والحقائق العلمية.
- أن سبب اختلاف هذه التعاريف إنما لكثرة أقسام التعريف العلمي، من كوني وطبي وإنساني وفلسفي.
- الأدق أن القضايا الفلسفية لا علاقة لها بالعلم التجريبي، ولا تندرج تحت مسماه، وذلك لأن التفسير الفلسفي –في الغالب– يقوم على إخضاع نصوص القرآن بآراء فلسفية خارجة عن نسق القرآن، أو مناقضة لدلالاته وأحكامه، والأصل في التفسير سلامة المنهج، فالتفسير الفلسفي إن لم يكن مرفوضًا فهو على الأقل محط تحذير، لأنه من التأويل المفرط(٤)، ومن ثم فلا علاقة له بالتفسير العلمي.

رأي الباحث في التعريف الراجح:

فرق بين الاستخراج والتوظيف: أرى –والله أعلم– أن التعاريف السابقة ركزت على أن التفسير العلمي استخراج العلوم الكونية وغيرها من القرآن الكريم، والأولى أن يقال: توظيف العلوم في فهم آيات القرآن على نحو يساير التطور العلمي، وينتقل به إلى درجة الإعجاز، مع ما فيه من زيادة إيضاح للمعاني القرآنية وتوسيع مدلولاتها.

---

(١) أصول التفسير وقواعده، خالد عبدالرحمن العك، ص٢١٧، الناشر: دار النفائس، ١٩٨٦م.

(٢) البيان في إعجاز القرآن، صلاح عبدالفتاح الخالدي، ص٢٦٠.

(٣) التفسير ومناهج المفسرين، د. جمال محمود الهوبي، ص٢٦، مطبعة المقداد، غزة، ١٩٩٩م.

(٤) ينظر: الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ٣١٥/٣، الناشر: دار ابن عفان، الأولى، ١٩٩٧م. التأويل والتأويل المفرط، أميرتو إيكو، ترجمة: ناصر الحلواني، ص١٥، مركز الإنماء الحضاري، ٢٠٠٩م، بتصرف.

وبهذا التعريف يفهم أن التفسير العلمي خادم للقرآن الكريم وليس حاكمًا عليه، كما قد يفهم –خطأ– من أكثر التعاريف المذكورة.

الألفاظ ذات الصلة:

١ – التفسير العلمي والإعجاز العلمي:

إعجاز القرآن: يراد به: إعجاز الناس أن يأتوا بمثله، فإذا أضفنا إليه الناحية العلمية عُرِّف بأنه: إخبار القرآن بحقيقة علمية كونية أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانيتها بالوسائل البشرية في زمن رسول الله –ﷺ–(١).

ولكي لا يحدث الخلط بينهما، فيفرق بينهما من جهات أربع:

أولها: من جهة التعلق:

فالتفسير العلمي: يكشف عن معنى الآية بما تم كشفه من العلوم الكونية سواء أكان الكشف قطعيًا أو ظنيًا راجحًا(٢).

أما الإعجاز العلمي: فهو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيرًا، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن النبي –ﷺ–(٣).

فالتفسير العلمي يتعلق بالقطعي أو الظني الراجح، أما الإعجاز القرآني فلا يتعلق إلا بالحقائق المثبتة.

فإن قيل: لماذا لم يتعلق التفسير العلمي بما هو قطعي فقط؟

يجاب عن ذلك: بأنه لابد عند التفسير العلمي للآيات الكونية من توظيف الحقائق العلمية الثابتة ما أمكن ذلك، ولكن لأن العلوم الكونية لم تصل بعد إلى الجواب النهائي في كل قضية من قضايا الكون وأسراره وظواهره فإنه لذلك يتعلق بأفضل النظريات العلمية المتاحة(٤).

(١) الإعجاز العلمي للقرآن، أحمد فؤاد باشا، ص٧١، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٢) الإعجاز العلمي في القرآن، رعد طاهر رشيد العمري، ص٣، مؤسسة النشر الإسلامي.

(٣) مجلة الإعجاز العلمي، هيئة الإعجاز العلمي، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد ١٤٠، يوليو ١٩٩٥م، مقال للدكتور عبدالمجيد الزنداني بعنوان: الإعجاز العلمي تأصيلاً ومنهجًا، ص١٣.

(٤) المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، ص١٠، بتصرف، الناشر: مكتبة الشروق الدولية.

ثانيها: العموم والخصوص:

التفسير العلمي أعم وأشمل؛ لأنه يتعلق بالمعاني والحقائق في جميع الآيات، اكتشفت أم لم تكتشف.

بينما الإعجاز العلمي: يقتصر على ما تم اكتشافه فقط.

فكل إعجاز علمي تفسير علمي وليس العكس، فبينهما عموم وخصوص.

ثالثها: مجال الخطأ والصواب:

التفسير العلمي: يدخله الخطأ والصواب، بخلاف الإعجاز العلمي فلا مجال للخطأ فيه.

رابعها: الوسيلة والغاية:

التفسير العلمي: وسيلة، والإعجاز العلمي: غاية.

فالتفسير العلمي: يستخدم مكتشفات العلم التجريبي في معاني الآيات القرآنية.

أمَّا الإعجاز العلمي: فهو استخدام التفسير العلمي في إثبات الإعجاز العلمي.

٢- **النظريـة العلميـة:** هي مجموعة فروض قابلة للتعديل والتغيير والتطور، وتقبل إضافة عناصر تفقدها، ويعمل بها في مجال التنبؤ بما يَجِد من ظواهر وعلاقات، أو تفسير ظاهرة علمية سبق أن أثيرت حولها شكوك في التنظير(١).

٣- **الحقيقـة العلميـة:** هي الوصف الصادق الأمين لأية ظاهرة، أو لأي جانب منها(٢).

والفرق بينهما: أن النظرية العلمية: بدايات العلم، أما الحقيقة العلمية: فهي نهاية ما وصل إليه العلم.

ومن جهة أخرى: فإن النظرية العلمية: قابلة للتعديل والتغيير، أمَّا الحقيقة العلمية: فلا تقبل النقاش لأن صورتها قاطعة.

❁ ❁ ❁

(١) القرآن وعالم الحيوان، د. عبدالرحمن محمد حامد، ص٢٦، الناشر: الدار السودانية للكتب، الخرطوم.

(٢) الكون بين العلم والدين، د. محمد جمال الدين الفندي، ص٣١، مطابع الأهرام التجارية، ١٩٧٢م.

المطلب الثاني

التفسير العلمي بين التاريخ والضوابط

أمَّا التاريخ: فلا يمكن تحديد بداية نشأة هذا العلم، إلا أنه يمكن تحديد صورة تقريبية لبداية المهتمين به إلى وقتنا المعاصر.

ولعل **الإمام الغزالي** (ت ٥٠٥هـ) هو أول من أشار إلى هذا العلم بوضوح وجلاء وإسهاب، فقد دافع عنه في كتابه «**جواهر القرآن ودرره**» فسمى الفصل الخامس منه "كيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن" فذكر علوم الطب والنجوم وهيئة العالم وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه، ثم قرر أن بعض الآيات القرآنية لا يتم تفسيرها –في رأيه– إلا بمعرفة بعض العلوم، كعلم الطب؛ في قوله –تعالى–: **{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}**[١]. وعلم الهيئة والفلك: في قوله –تعالى–: **{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}**[٢]. وقوله –تعالى–: **{وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}**[٣]. وعلم التشريح والأعضاء: في قوله –تعالى–: **{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}**[٤][٥].

ثم قرر في الإحياء أن القرآن الكريم فيه إشارات ودلالات لعلوم لا نهاية لها، يختص بها أهل الفهم دون غيرهم، فيقول: «العلوم كلها داخلة في أفعال الله –عز وجل– وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارات إلى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك..، ففي القرآن رموز إليه ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها»[٦].

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٨٠.

(٢) سورة يس: الآية ٣٨.

(٣) سور يس: الآية ٤٠.

(٤) سورة الانفطار: الآيتان ٦–٧.

(٥) جواهر القرآن ودرره، أبو حامد الغزالي، ص٧ الناشر: دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

(٦) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٢٥٨/١، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

ثم أتى العلامة الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) فأشار إليه كثيرًا في تفسيره.

من ذلك: ما ذكره عند تفسير قوله –تعالى–: {**وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ**}[١]، فيقول: «قدَّر لكل حيوان ما يصلحه، فهداه إليه، وعرَّفه وجه الانتفاع به..، وهدايات الله للإنسان إلى ما لا يحدّ من مصالحه، وما لا يحصر من حوائجه في أغذيته وأدويته، وفي أبواب دنياه ودينه، وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض: باب واسع، وشوط بطين[٢]، لا يحيط به وصف واصف، فسبحان ربي الأعلى»[٣].

وما أشار إليه في علم الفلك والنجوم عند تفسيره لقوله –تعالى–: {**فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ**}[٤] إذ يقول: "الخنس: الرواجع، بينما ترى النجم في آخر البرج إذ كرَّ راجعًا إلى أوّله، و{الجوار}: السيارة. و{الكنس}: الغيب.. قيل: هي الدراري الخمسة: بهرام، وزحل، وعطارد، والزهرة، والمشتري، تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس، فخنوسها: رجوعها، وكنوسها: اختفاؤها تحت ضوء الشمس. وقيل: هي جميع الكواكب، تخنس بالنهار فتغيب عن العيون، وتكنس بالليل: أي تطلع في أماكنها..."[٥].

وقول العلامة الزمخشري: "وقيل، وقيل" فيه إشارة إلى أن تفسير الآية وما شاكلها تفسيرًا علميًا كان أسبق من الإمام[٦].

ثم أتى الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) فأسهب فيه بنصيب وافر، وكثَّر الكلام فيه أثناء تفسيره، جعله من الرائدين لهذا الفن.

---

(١) سورة الأعلى: الآية ٣.

(٢) شوط بطين: بعيد، "المخصَّص"، ابن سيده، ٣٣/٢، الناشر: دار صادر للطباعة والنشر.

(٣) تفسير الكشاف، الزمخشري، ٢٧٥/٧، الناشر: دار المعرفة.

(٤) سورة التكوير: الآيتان ١٥–١٦.

(٥) السابق، ٢٤١/٧.

(٦) الإسلام في عصر العلم، محمد فريد وجدي، ص٢٦، بتصرف، الناشر: دار الكتاب العربي.

فتجده يقول في تفسير قوله –تعالى–: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ}[١]: "{قدَّر}: يتناول المخلوقات في ذواتها وصفاتها، كل واحد على حسبه، فقدر السماوات والكواكب والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والإنسان بمقدار مخصوص من الجثة والعظم، وقدر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة، ومن الصفات والألوان والطعوم والروائح والأوضاع والحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة مقدارًا معلومًا، على ما قال: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ}[٢]..، ثم قرر أن هذا العلم لا يكفيه مجلدات، فيقول: وتفصيل هذه الجملة مما لا يفي بشرحه المجلدات، بل العالم كله من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، تفسير هذه الآية، وتفصيل هذه الجملة[٣].

وفي القرن الثامن الهجري ظهر العلامة بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) فعقد فصلاً في «برهانه» بعنوان: «في القرآن علم الأولين والآخرين»، قَرَّر فيه أن "في القرآن علم الأولين والآخرين، وما من شيء إلا ويمكن استخراجه منه لمن فَهَّمَه الله –تعالى"[٤].

وفي القرن العاشر الهجري كان للعلامة السيوطي (ت ٩١١هـ) جهود موفقة في هذا العلم، وأن عجائب الكون كله معلومة ومعارفه مقررة في القرآن الكريم. فيقول: "وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الثرى.. إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات"[٥].

(١) سورة الأعلى: الآية ٣.
(٢) سورة الحجر: الآية ٢١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٤٦١/١٦، الناشر: دار الفكر، ١٩٨١م.
(٤) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١٨١/٢، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
(٥) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١٢٩/٢، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.

وبالجملة فإننا نجد كثرة من المفسرين أشاروا إليه إشارات متنوعة، وتفاوتوا في ذكره قلة وكثرة، كالنيسابوري (ت ٧٢٨هـ) في «غرائب التأويل» والبيضاوي (ت ٧٩١هـ) في «أنوار التنزيل» والألوسي (ت١٢٧٠هـ) في «روح المعاني» إلا أنها ليست كتفصيلات السابقين.

أما في العصر الحديث: فلأن لغة العصر هي لغة العلوم والمعارف، والمخترعات، والمكتشفات، حيث أضحى الإلحاد اليوم هو الإلحاد العلمي الذي يبحث عن النظريات العلمية بدائل لفكرة الخلق، وقدرة خالق حكيم يهيمن على الكون[1]، من أجل ذلك انتشر التفسير العلمي وازداد الاعتناء به، وكان من أهم المعتنين به: الإمام محمد عبده ومحمد رشيد رضا في تفسيرهما المعروف بـ «المنار»، والدكتور محمد محمود حجازي في «التفسير الواضح»، وطنطاوي جوهري في «الجواهر».

واستمرت العناية به إلى قرننا الحاضر، فكان من أهم المهتمين به: سعيد حوى صاحب «الأساس»، والشيخ الإمام محمد متولي الشعراوي في «خواطره»، وأبو الأعلى المودودي صاحب «تفهيم القرآن»، ومحمد ماضي أبو العزائم صاحب «أسرار القرآن»، والأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي في «الوسيط»، ولم تقتصر العناية بالتفسير العلمي في العصر الحديث بالمفسرين فقط بل اعتنى به طائفة من العلماء، فكان لهم جهد كبير في استخراج أسراره ودرره من كتاب رب العالمين.

(١) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، د. كارم السيد غنيم، ص٤٠، بتصرف، الناشر: دار الفكر العربي.

لمحتان دقيقتان:

أولهما: إذا كان المفسرون أولوا عناية بهذا اللون من التفسير تتفاوت قلة وكثرة، فإن الطاهر بن عاشور –رحمه الله– هو أهم المساهمين في هذا النوع من التفسير، فكانت الحاجة ماسة لإظهار جهده فيه.

ثانيهما: التفسير العلمي عند المفسرين بين الإشارة والاتجاه(١) والمنهج(٢) والمصطلح:

تجدر الإشارة إلى أن جُلَّ المفسرين اعتنوا بهذا اللون من التفسير بإشارات إليه في تفاسيرهم، وتفاوتوا في ذكرها قلة وكثرة.

إلا ما كان من العلمين الكبيرين الرازي "من المفسرين القدامى"، والطاهر بن عاشور "من المحدثين"، فقد كانا رائدين في هذا العلم، واعتبراه اتجاهًا ومقصدًا من مقاصد التفسير التي لابد من تحققها فيه.

أمَّا التفسير العلمي كمصطلح يفرد له مصنفات مستقلة فلم يعرف إلا في العصر الحديث، وله رجاله المختصون به.

وأمَّا الضوابط: فلخطورة ما يترتب على التفسير العلمي من مخاطر إذا كان من قبيل الرأي المجرد أو الهوى أو التكلف، قَعَّد العلماء له ضوابط لابد من مراعاتها حتى يكون تفسيرًا مقبولاً، وإلا فمرفوض، وأحصرها وأوجزها في الضوابط التالية:

---

(١) الاتجاه: لغة: مأخوذ من الوجه، أو الوجهة، جاء في لسان العرب: وجه كل شيء مستقبله.. والجهة والوجهة: الموضع الذي تتوجه إليه وتقصده. "لسان العرب"، ابن منظور، ٥٥٥/١٣، مادة "وجه"، الناشر: دار صادر بيروت، الطبعة الأولى.

وفي المفردات: يقال للقصد وجه.. "مفردات ألفاظ القرآن"، الراغب الأصفهاني، ١٥٦٠/١، الناشر: دار العلم، ٢٠٠٩م.

فالاتجاه من مفهوم اللغة: الهدف الذي يجعله المفسر قصدًا من مقاصده.

(٢) المنهج: لغة: هو الطريق "القاموس المحيط"، الفيروزآبادي، ٤٧٩/١، الناشر: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٥م.

واصطلاحًا: الخطط العلمية الموضوعية المحددة التي التزم بها المفسرون في تفاسيرهم. "تعريف الدارسين بمناهج المفسرين"، د. صلاح عبدالفتاح الخالدي، ص١٧، الناشر: دار القلم، دمشق.

١- عدم مخالفة قواعد اللغة، لأنه لا يمكن فهم القرآن إلا من جهة اللسان العربي الذي نزل به.

٢- استبعاد ما لا يتأتى قبوله عقلاً[١].

٣- الابتعاد عن النظريات العلمية التي تخضع للتغييرات، لئلا يترتب على هذا التفسير العلمي نتائج سيئة، لأن نصوص القرآن صحيحة ثابتة، وبعيدة عن التغيرات التي تطرأ على النظريات العلمية، ولذلك يجب الاعتماد على الحقائق العلمية الثابتة، وكذلك على النظريات الراجحة، مع التنبيه أنه إذا ظهر خطأ أو تقصير في هذه النظرية فإن الخطأ يجب أن ينسب إلى النظرية، لا إلى القرآن، فالقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[٢].

٤- أن يكون التحاكم في صحة النظرية للقرآن، فالحقائق القرآنية هي المعيار الذي يجب أن يحتكم إليه العلم[٣].

٥- تحقيق المطابقة بين دلالة النص، وتلك الحقيقة العلمية.

٦- ذكر الحقيقة العلمية بلا غلو في نتائجها.

٧- البعد عن التكلف أو التعسف في الاستدلال.

٨- البعد التام عن التعسف في التأويل لإبراز التفسير العلمي، فتكون النتيجة سيئة على حساب القرآن الكريم، وهو بريء منها.

٩- لا يجوز التفسير العلمي إذا ترتب عليه الخروج بالألفاظ إلى غير معانيها.

---

(١) الإشارات العلمية في القرآن الكريم، ص٢٨٤.

(٢) ينظر: التفسير العلمي للقرآن الكريم، صلاح عبد علي، ص٢٧، ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، بغداد، ١٩٨٧م، تيسير الرحيم الرحمن في الإعجاز العلمي للقرآن، د. لطيف أحمد عبود، ص٣٠، دار الجيل.

(٣) مجلة الإعجاز العلمي، ص١٤، بتصرف.

١٠- لا مانع من استنباط القضايا إما من صريح النص أو من إشارات قوية واضحة[١].

١١- مراعاة تعدد اللفظ الواحد، فثراء الألفاظ في اللغة أهم خصائصها، فتتعدد فيها مدلولات اللفظ بكثرة معانيه، فيأخذ كل حسب ثقافته والمعطيات التي توافرت في معانيه، واللفظ واحد باق.

وقد نقل الطاهر بن عاشور عن الإمام الغزالي: "أن من موانع الفهم: أن يكون قد فَسَّر تفسيرًا واعتقد أن لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس وابن مجاهد وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي، فهذا من الحجب العظيم"[٢].

فإن قيل: إن التفسير العلمي استخراج لأوجه تفسيرية لم يقل بها المتقدمون؟ أجاب الفخر الرازي: "أنه قد ثبت في أصول الفقه: أن المتقدمين إذا ذكروا وجهًا في تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها، وإلا لصارت الدقائق التي يستنبطها المتأخرون في التفسير مردودة، وذلك لا يقوله إلا مقلد خلف"[٣].

١٢- أن يكون التفسير موافقًا لظاهر اللفظ، ولا يتجه إلى التأويل إلا إذا كان الظاهر يقبل التأويل، وتكون حقائق العلم الثابتة تقتضي الأخذ بالتأويل الذي يتحمله القرآن الكريم من غير تعسف ولا الخروج بالألفاظ عن معانيها[٤].

(١) ينظر: الإعجاز القرآني في العلوم الجغرافية، د. محمد مختار عرفات، ص١٥، دار اقرأ، دمشق، الطبعة الأولى، دراسات في أصول تفسير القرآن. د. محسن عبدالحميد، ص١٥، طبعة الوطن العربي، بغداد، ١٩٨٩م، مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ص١١٧، بتصرف، دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) التحرير والتنوير، ١٢/١، الإحياء، الغزالي، ٥٢/٢.

(٣) تفسير الرازي، ٥١/٥.

(٤) الإشارات العلمية، ص١٢٩.

أقول: مع أن الحقيقة تقدم على المجاز، فلا يُعدل من الحقيقة إلى المجاز إلا إذا كانت القرائن تمنع من حقيقة اللفظ كما قرر أهل الأصول(١).

إلا أن اللفظة في القرآن الكريم لها دلالات حقيقية ومجازية، فإذا كانت هناك حقيقة علمية توجب إجراء دلالة اللفظ على المجاز فلا بأس، شريطة ألا ترفض الدلالات الأخرى لأنها الأصل.

فقد تجمع اللفظة القرآنية بين الحقيقة والمجاز في آن واحد، وقد مثل لها الإمام الزركشي بقوله –تعالى–: **{يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ}**(٢) فأريد باللفظ الشرب والري معًا فجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ واحد(٣).

وكذلك جوَّزه الطاهر بن عاشور واستشهد عليه بآيات، وذكر منها أن النبي –ﷺ– فسَّر معنى اللفظة على الحقيقة والمجاز، ومن الشواهد على ذلك قوله –تعالى–: **{إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}**(٤) فقد قال النبي –ﷺ– لعمر بن الخطاب لما قال له: لا تصل على عبدالله بن أبي بن سلول فإنه منافق وقد نهاك الله عن أن تستغفر للمنافقين، فقال النبي –ﷺ–: «خيرني ربي وسأزيد على السبعين»(٥)(٦). فحمل قوله –تعالى–: **{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ}**(٧) على التخيير، مع أن ظاهره أنه مستعمل على التسوية.. فكان الحمل تأويلاً ناشئًا عن

(١) ينظر: المحصول، الرازي، ٧٧/١، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي، ٧٥/١، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، الأولى، ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة الإنسان: من الآية ٦.

(٣) البرهان، ٣٣٨/٣.

(٤) سورة التوبة: من الآية ٨٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه [٢٨٩/١٥، برقم ٤٦٧٠، كتاب: التفسير–سورة براءة، باب: قوله: "استغفر لهم أو لاتستغفر لهم"] دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ. ومسلم [٤/١٦، برقم ٦٣٦، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر –رضي الله تعالى عنه–] بلفظ: "إنما خيرني الله فقال: "استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة" وسأزيد على سبعين".. الحديث، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٦) التحرير والتنوير، ٣٤٩/٦، بتصرف.

(٧) سورة التوبة: من الآية ٨٠.

الاحتياط[١]. وللطاهر في مقدمته التاسعة "حمل جمل القرآن على المعاني التي تتحملها مرادة بها"[٢]، قاعدة تؤصل هذا المعنى.

وأزيد على هذه الشروط:

- الاحتياط الكامل في نقل الحقائق العلمية حتى يتحقق بين التفسير العلمي والآيات القرآنية التكامل لا التصادم.
- ألا يعارض التفسير العلمي ما دلَّ عليه القرآن في موضع آخر، فالقرآن يصدق بعضه بعضًا.
- ألا يشير التفسير العلمي من قريب أو بعيد إلى تبعية الآيات له، فالقرآن هو أصل كل العلوم ومنبعها، وكلها تابعة له منبثقة منه.
- وآخر ما يضاف يتعلق بمن تصدى لهذا الاتجاه العصري من التفسير بأن يكون عالمًا بالقرآن وعلومه وأصوله، حتى يكون أداة للتوفيق والتكامل بينهما بفهم وعلم لا تكلف وتعسف.

❁ ❁ ❁

(١) مقدمة التحرير والتنوير، ٩٥/١.
(٢) السابق، ٩٥/١.

المطلب الثالث

التفسير العلمي بين القبول والرفض

للعلماء اتجاهان في التفسير العلمي، اتجاه مؤيد، واتجاه معارض.

أمَّا المؤيد: -من القدامى-: أبرزهم: الإمام الغزالي، والفخر الرازي، والإمام الزركشي، والإمام السيوطي[١]، فاعتبروا التفسير العلمي ضرورة يجب الرجوع إليه، على اعتبار أن القرآن الكريم حوى كل العلوم.

ومن المحدثين: علماء كثر، أبرزهم: الإمام محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ)، والإمام طنطاوي جوهري[٢] (ت ١٣٥٨هـ)، والإمام عبدالحميد بن باديس[٣] (ت ١٣٥٩هـ)، والإمام المراغي (ت ١٣٧١هـ)، والطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)[٤].

أمَّا المعارضون: فأهمهم: الإمام الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، والشيخ شلتوت[٥] (ت ١٣٨٣هـ)، والدكتور محمد حسين الذهبي (ت ١٣٩٧هـ)[٦].

---

(١) ينظر: الإحياء، ٣٤١/١، تفسير الرازي، ١٤/٧، البرهان، ١٨١/٢، الإتقان، ٢٤/٤.

(٢) **طنطاوي جوهري:** عالم حكيم أديب، شارك في أنواع من العلوم، التحق بالجامع الأزهر، وتخرج بدار العلوم ودرس بها، أشهر مؤلفاته: "الجواهر في تفسير القرآن الكريم"، توفي سنة ١٣٠٩هـ. "معجم المؤلفين"، عمر كحالة، ٤٢/٥، الناشر: مكتبة المثنى، بيروت.

(٣) **الإمام عبدالحميد بن باديس:** من رجال الإصلاح في الوطن العربي، عالم مفسر، فسر القرآن خلال خمس وعشرين سنة، وجمع ما نشر تحت عنوان "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، توفي سنة ١٣٥٩هـ. ينظر: "معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر"، عادل نويهض، ٢٩/١، مؤسسة نويهض، الأعلام، الزركلي، ٢٨٩/٣، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.

(٤) ينظر: تفسير المنار، ٧/١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، الجواهر في تفسير القرآن، طنطاوي جوهري، ٢٥/١٣، الناشر: مصطفى البابي الحلبي، مجالس التذكير، ص٢١٢-٢١٣، مطبوعات وزارة الشئون الدينية، الطبعة الأولى، تفسير المراغي، ٧/٣، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٤٦م، والتحرير والتنوير، ١٢٩/١.

(٥) **الشيخ محمود شلتوت:** مفسر، مصري، تخرج بالأزهر سنة ١٩١٨م، وكان شيخًا له سنة ١٩٥٨م، له عدة مصنفات، توفي سنة ١٣٨٣هـ، الأعلام، الزركلي، ١٧٣/٧.

(٦) ينظر: الموافقات، ٦٥/٢، تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت، ص١١، طبعة دار الشروق، لبنان، التفسير والمفسرون، ٥٦٧/٢، الناشر: مكتبة وهبة، ٢٠٠٠م.

ولما كان عرض وجهتي النظر عند هذه الكوكبة المباركة تفصيلاً أمرًا يطول، فسأكتفي بعرض وجهة نظر واحدة تمثل كل فريق، كأنها مناظرة حية بين الفريقين، الإمام الشاطبي باعتباره أبرز المعارضين، والطاهر بن عاشور باعتباره أشد المؤيدين، فضلاً على أنه محل الدراسة.

الإمام الشاطبي: التفسير العلمي يعارض أمية الشريعة ويناقض مذاهب العرب:

تعرض الإمام الشاطبي في موافقاته لنقد الاتجاه العلمي في تفسير كتاب الله – تعالى–، ونقد أصحابه؛ لأنهم –من وجهة نظره– أضافوا للقرآن الكريم كل العلوم من الطبيعيات، والرياضيات، والمنطق، وعلم الحروف، وغيرها، ولا يخفى ما فيها من بُعد وتكلف.

فقال في المسألة الرابعة: ما تقرر من أمية الشريعة[١] وأنها جارية على مذاهب أهلها –وهم العرب– ينبني عليها قواعد:

منها: أن كثيرًا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحدَّ، فأضافوا إليه كل علم يُذكر للمتقدمين أو المتأخرين: من علوم الطبيعيات، والتعاليم، والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها..

(١) **مفهوم أمية الشريعة عند الإمام الشاطبي:** أن الشارع راعى في تنزيل شريعته نسبة ما الأمة العربية عليه من الجهل بالعلوم القديمة، لذا لا يمكن فهم معاني الشريعة فهمًا سليمًا، وتفهم مقاصدها تفهمًا موضوعيًا إذا غيب الباحث الملابسات المجتمعية للحضارة العربية، التي قارنت نزول الشريعة، ومعنى ذلك أن فهم معاني الشريعة لا يحتاج إلى التغلغل في العلوم الكونية، فإنها لو لم تكن كذلك لما وصلت جمهور الخلق من عرب وغيرهم. ينظر: علم المقاصد الشرعية، نور الدين الخادمي، ص٣٧، بتصرف، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

وربما استدلوا على دعواه بقوله –تعالى–: **{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ}**[1]، وقوله: **{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ}**[2] ونحو ذلك، وبفواتح السور – وهي مما لم يعهد عند العرب– وبما نقل عن الناس فيها، وربما حُكي من ذلك عن علي بن أبي طالب –ﷺ– وغيره أشياء.

فأما الآيات: فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب في قوله: **{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ}** اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية.

وأما فواتح السور، فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب عهدًا، كعدد الجمل الذي تعرفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السير، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله –تعالى–، وغير ذلك. وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون، ولم يدعه أحد ممن تقدم، فلا دليل فيها على ما ادَّعَوْا، وما ينقل عن عليّ أو غيره في هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن يُنكر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار –في الاستعانة على فهمه– على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة، فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضلَّ عن فهمه، وتقوَّل على الله ورسوله فيه. والله أعلم، وبه التوفيق[3].

فحاصل موقف الإمام الشاطبي: عدم قبول هذا النوع من التفسير العلمي، على اعتبار أن العرب لم يعرفوه، ولا يتوافق على ما هم عليه من وصف بالأمية، وعلى اعتبار أن الشريعة أمية جاءت لقوم أميين.

(١) سورة النحل: من الآية ٨٩.
(٢) سورة الأنعام: من الآية ٣٨.
(٣) الموافقات، ٢/٨٠-٨٢.

*** الطاهر بن عاشور: التفسير العلمي ضرورة للتفسير والمفسر:**

رَدَّ الطاهر بن عاشور على الإمام الشاطبي في رفضه للتفسير العلمي، واعتبر أن ما ذهب إليه مبني على أساس واهٍ من ستة وجوه: فنقل كلام الشاطبي، ثم قال: وهذا مبني على ما أسسه من كون القرآن لما كان خطابًا للأميين وهم العرب، فإنما يعتمد في مسلك فهمه وإفهامه على مقدرتهم وطاقتهم، وأن الشريعة أمية. وهو أساس واهٍ لوجوه ستة:

الأول: أن ما بناه عليه يقتضي أن القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال، وهذا باطل لما قدمناه، قال –تعالى–: **{تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا}**(١).

الثاني: أن مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة، وهو معجزة باقية، فلابد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة.

الثالث: أن السلف قالوا: إن القرآن لا تنقضي عجائبه، يعنون معانيه، ولو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه بانحصار أنواع معانيه.

الرابع: أن من تمام إعجازه أن يتضمن من المعاني مع إيجاز لفظه ما لم تف به الأسفار المتكاثرة.

الخامس: أن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداء لا يقضي إلا أن يكون المعنى الأصلي مفهومًا لديهم، فأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد يتهيأ لفهمه أقوام، وتحجب عنه أقوام، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى منْ هو أفقهُ منهُ.

(١) سورة هود: من الآية ٤٩.

السادس: أن عدم تكلم السلف عليها إن كان فيما ليس راجعًا إلى مقاصده فنحن نساعد عليه، وإن كان فيما يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات، بل قد بينوا وفصلوا وفرعوا في علوم عنوا بها، ولا يمنعنا ذلك أن نقتفي على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية أو لبيان سعة العلوم الإسلامية، أما ما وراء ذلك فإن كان ذكره لإيضاح المعنى فذلك تابع للتفسير أيضًا؛ لأن العلوم العقلية إنما تبحث عن أحوال الأشياء على ما هي عليه، وإن كان فيما زاد على ذلك، فذلك ليس من التفسير لكنه تكملة للمباحث العلمية واستطراد في العلم لمناسبة التفسير، ليكون متعاطي التفسير أوسع قريحة في العلوم(١).

فحاصل ما ذكره الطاهر أن فهم الصحابة الكرام للقرآن الكريم كما شمل العبادات والتشريعات والأخلاق، شمل الآيات الكونية بإجمال؛ لأن تفاصيلها لم تكن معلومة لديهم.

رأي الباحث: التأييد المنضبط أولى من المعارضة المطلقة:

أذكر أولاً أن المعارضين والمؤيدين لهذا التفسير العلمي ما حملهم على هذا إلا الغيرة على كتاب الله –تعالى–، **فالمعارضون:** خافوا من التكلف والتعسف في التأويل، فيخرج القرآن الكريم من كونه كتاب هداية وإرشاد إلى علوم كونية تخرجه عن هدفه الأصيل.

إضافة إلى أن النظريات العلمية لا قرار لها ولا بقاء، فيحمل القرآن أخطاء هذه النظريات وهو منها براء، وهي غيرة محمودة.

والمؤيدون: من مبدأ أن القرآن الكريم حوى كل العلوم، ولابد أن يفهم على حسب مقتضيات كل عصر على حسب أفهامهم، بالإضافة إلى ما في هذا التفسير من علوم كونية أنبأ القرآن عنها قبل اكتشافها، وهو لون من ألوان الإعجاز القرآني، لابد من بيانه للعالمين، وهي غيرة محمودة كذلك.

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/١.

والأولى في هذا النقاش العلمي أن يجمع بين القولين، فلست مع المعارضة المطلقة، أو التأييد غير المنضبط، بل أقبله بالضوابط التي تجعله وسطًا معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، لا سيما والمكتشفات العلمية تعين على فهم وتفسير الآيات الكونية في الكتاب العزيز، وأهم ما يراعى في ذلك:

- **التخصص العلمي:** فالإشارات العلمية لا يمكن أن يدرك دلالاتها غير المتخصصين، فليس من السهل اكتشافها أو استقصاءها.
- أن تحمل الآيات الكونية بتفسيرها العلمي على القرآن، لا العكس، فيبدأ التفسير العلمي من الكون المنظور إلى الآيات المسطورة، فيكون القرآن بذلك حاكمًا وأصلاً، لا محكومًا وتابعًا.
- مراعاة ضوابط التفسير العلمي، فإذا تحققت قبل، وإذا فقدت يرد، وذلك لأن عدم مراعاتها يؤدي إلى الإفراط في التفسير العلمي الذي يؤدي إلى غلق بابه، فينتقل حينئذ من الإفراط إلى التفريط، ومن المزايا إلى المآخذ.

❁ ❁ ❁

المبحث الثاني
التفسير العلمي عند الطاهر بن عاشور
بين المقاصد والضوابط

ويشتمل على أربعة مطالب

المطلب الأول : **التفسير العلمي لآيات السماء**

المطلب الثاني : **التفسير العلمي لآيات المجموعة الشمسية**

المطلب الثالث : **التفسير العلمي لآيات الجبال**

المطلب الرابع : **التفسير العلمي لآيات متنوعة**

المطلب الأول

التفسير العلمي لآيات السماء

توطئة: إذا كان بعض المفسرين يقتصرون في تفاسيرهم على ظاهر اللفظ مع إيضاح المعنى وبيانه، وآخرون يستنبطون معانٍ وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافيها الاستعمال، فأستطيع القول أن الطاهر بن عاشور –رحمه الله– أكثر المفسرين اعتناءً بالتفسير العلمي وتوظيفه في بيان معاني الآيات الكونية، ولم يقف عند هذا الحد بل إنه اعتبر هذا اللون من التفسير المعاصر:

من مقاصد التفسير وغاياته: فقد أبان في مقدمته الرابعة من مقدمات تفسيره، علاقة مقاصد التفسير بالمسائل العلمية، فكان مما قال: «.. وأن بعض مسائل العلوم قد تكون أشد تعلقًا بتفسير آي القرآن، كما نعرض مسألة كلامية لتقرير دليل قرآني، مثل برهان التمانع لتقرير معنى قوله –تعالى–: **{لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا}**[(١)]..، فهذا كونه من غايات التفسير واضح، وكذا قوله –تعالى–: **{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ}**[(٢)]، فإن القصد منه الاعتبار بالحالة المشاهدة، فلو زاد المفسر ففصَّل تلك الحالة، وبين أسرارها وعللها بما هو مبين في علم الهيئة[(٣)]، كان قد زاد المقصد منه»[(٤)].

(١) سورة الأنبياء: من الآية ٢٢.

(٢) سورة ق: الآية ٦.

(٣) **علم الهيئة:** علم الفلك، وهو علم يبحث عن أحوال الأجرام السماوية، وعلاقة بعضها ببعض، وما لها من تأثير في الأرض. "المعجم الوسيط"، إبراهيم مصطفى وآخرون، ٩٢٦/٢، حرف الهاء، الناشر: دار الدعوة.

(٤) التحرير والتنوير، ٤٠/١-٤١.

من أدق أنواع الإعجاز القرآني: فيقول: «.. وهذا من العلم الذي أودع في القرآن، ليكون معجزة من الجانب العلمي يدركها أهل العلم، كما كان معجزة للبلغاء من جانبه النظمي»[(١)]، ويقرر في موطن آخر أن «القرآن معجز ببلاغة لفظه وإعجازه العلمي، إذ اشتمل على علوم لم يكن للناس علم بها..»[(٢)].

وإذا كانت منهجية التفسير العلمي تقوم على ثلاثة اتجاهات رئيسة:

أولها: استخراج العلوم من القرآن بالضوابط العلمية.

وثانيها: تطبيق النظريات العلمية على القرآن الكريم.

وثالثها: استخدام العلوم لفهم وتبيين القرآن الكريم[(٣)].

فلقد حقق الطاهر بن عاشور هذه المنهجية، بل وزاد عليها بإظهار التكامل بين القرآن الكريم والحقائق العلمية، وأنهما يتوافقان ولا يتصادمان، وأن القرآن الكريم كما أنه كتاب هداية، فإن به مئات الآيات التي تتعرض للعلوم الكونية والطبيعية، وأن الوقوف عليها يعين على زيادة الإيمان، ويكشف عن عظمة المعنى، مع ما فيه من مواكبة العصر وملاءمته.

وسأقف في هذا المطلب مع أهم النماذج التي تعرض لها الطاهر في تفسيره العلمي لآيات السماء، متجنبًا ما سكت عنه، مقارنًا تفسيرات الطاهر بضوابط التفسير العلمي، لإثبات صحة تفسيراته وتميزها، واتساع دلالات الألفاظ القرآنية لها، وفق الترتيب التالي:

(١) السابق، ٣٣٦/١٠.

(٢) السابق، ٢٦٩/١٢.

(٣) مناهج التفسير واتجاهاته: دراسة مقارنة في مناهج تفسير القرآن الكريم، محمد علي الرضائي الأصفهاني، ص٢٤٤، بتصرف، الناشر: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة الثالثة، ٢٠١١م.

النموذج الأول: فتق السماء والأرض بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}**(١).

فقد ذكر الطاهر بن عاشور أن الرؤية –في قوله: **{أَوَلَمْ يَرَ}**– تحتمل أن تكون بصرية، وأن تكون علمية، وأن الاستفهام صالح لأن يتوجه إلى كلتيهما، "لأن إهمال النظر في المشاهدات الدالة على علم ما ينقذ علمه من التورط في العقائد الضالة حقيق بالإنكار، وإنكار إعمال الفكر في دلالة الأشياء حتى لا يقع أحد في الضلال جدير –أيضًا– بالإنكار.

والرتق: الاتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء، **والفتق:** ضده، وهو الانفصال والتباعد بين الأجزاء"(٢).

ثم ذكر أننا لو اعتبرنا **الرؤية بصرية:** فالرتق المشاهد: هو ما يشاهده الرائي من عدم تخلل شيء بين أجزاء السماوات وبين أجزاء الأرض، **والفتق:** هو ما يشاهده الرائي من ضده، ذلك حين يرى المطر نازلاً من السماء، ويرى البرق يلعج(٣) منها، والصواعق تسقط منها، فذلك فتقها...

وإن اعتبرنا الرؤية علمية: احتمل أن يراد بالرتق مثل ما أريد على اعتبار كون الرؤية بصرية، واحتمل أن يراد بالرتق معانٍ غير مشاهدة، ولكنها مما ينبغي طلب العلم به لما فيه من الدلائل على عظم القدرة وعلى الوحدانية.

فيحتمل أن يراد بالرتق والفتق حقيقتاهما، أي: الاتصال والانفصال، أي: كانت السماوات والأرض رتقًا واحدًا، أي: كانتا كتلة واحدة ثم انفصلت السماوات عن الأرض... ويحتمل أن يكون الرتق والفتق على التوزيع، أي: كانت السماوات رتقًا في حد ذاتها، وكانت الأرض رتقًا في حد ذاتها، ثم فتق الله السماوات وفتق الله الأرض..

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

(٢) التحرير والتنوير، ١٤٩/٩.

(٣) اللَّعج: كل محرق، "لسان العرب"، ٣٥٧/٢، مادة: "لعج".

ويحتمل أن يراد بالرتق: العدم، وبالفتق: الإيجاد، ويحتمل أن يراد بالرتق: الظلمة، وبالفتق: النور، فالموجودات وجدت في ظلمة ثم أفاض الله عليها النور بأن أوجد في الأجسام نورًا أضاء الموجودات...

ثم قال: **والظاهر**: أن الآية تشمل جميع ما يتحقق فيه معاني الرتق والفتق، إذ لا مانع من اعتبار معنى عام يجمعها جميعًا، فتكون الآية قد اشتملت على عبرة تعم كل الناس، وعبرة خاصة بأهل النظر والعلم، فتكون من معجزات القرآن العلمية التي أشرنا إليها في مقدمات هذا التفسير(١).

النظرة التكاملية بين التفسير العلمي والقرآن الكريم:

لقد أصَّل الطاهر بن عاشور في مقدمات تفسيره قاعدة مفادها: «أن المعاني التي تتحملها جُمَلُ القرآن، تعتبر مرادة بها، فيصح الجمع بين المعاني التي يذكرها المفسرون، أو نرجح بعضها على بعض، بشرط عدم الخروج عن مهيع(٢) الكلام العربي البليغ»(٣).

وما ذكره الطاهر من رتق السماوات والأرض وفتقها يتفق تمامًا مع ما ذكره العلم الحديث، فقد شهد العلم الحديث بعد أن صعد رواد الفضاء إلى الفضاء الخارجي وجاءوا بنماذج من الأجرام السماوية وكشفوا عن مادتها، أكدوا أنها تطابق مادة الأرض، واستدلوا على ذلك بوحدة السماء والأرض(٤).

كما أثبت العلم الحديث بالأدلة القاطعة أن السماوات والأرض كانتا شيئًا واحدًا، ثم تسلطت عليهما قوى كونية هائلة أدت إلى ظهور هذا الكون بالصورة التي نعرفها الآن(٥).

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥١/٩.

(٢) مَهْيَع: الطريق الواسع الواضح، "المخصص"، ابن سيده، ٤٦٨/٢.

(٣) التحرير والتنوير، ١٠٠/١.

(٤) بحوث مؤتمر الإعجاز القرآني، بغداد سنة ١٤١٠هـ، ص١٤١، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، القرآن والإعجاز العلمي، د. عبدالستار حامد، ص٣٥، الأهلية للنشر والتوزيع، الأولى، ٢٠٠٩م.

(٥) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. محمد سيد أرناؤوط، ص١٧٩، الناشر: مكتبة مدبولي.

ضوابط التفسير العلمي عند الطاهر:

هذا التفسير العلمي عند الطاهر بن عاشور مع موافقته لما عليه المتخصصون في المجال العلمي، إلا أنه لابد من عرضه على ضوابط التفسير العلمي حتى تطمئن النفس إلى صحته وقبوله، وهذه الضوابط أهمها:

أولاً: موافقة اللغة: فالمعاجم اللغوية على أن الرَّتْق: ضد الفتق، وقد رتقت الفتق أرْتُقُه فارْتَقَ، أي: التأم(١)، والرَّتق: إلحام الفتق(٢)، والرَّتق: مصدر رتق رتقًا: إذا لم يكن بينهما فرجة(٣).

وفي تهذيب اللغة: الرتق: الظلمة(٤).

قال الزجاج (ت ٣١١هـ): المعنى أن السماوات كانت سماءً واحدةً مُرْتَتِقةً ليس فيها ماء فجعلها الله غير واحدة، ففتق الله السماء فجعلها سبعًا، وجعل الأرض سبع أرضين(٥).

فاللغة على أن الفتق خلاف الرتق، وأن حال السماوات والأرض كانتا رتقًا ففصلهما الله –سبحانه– بالفتق، ومن ثم فاللغة توافق التفسير العلمي ولا تعارضه.

ثانيًا: الاتفاق مع المفسرين من وجه والتميز من آخر: فالمفسرون على حمل الرؤية على معنى: العلم، فهي رؤية علمية(٦)، وتميز الطاهر بحملها على المعنيين: العلمية والبصرية، ولا يخفى ما في ذلك من تميز يجعل الآية تخاطب كل جاحد بعظم قدرة الله –سبحانه– إلى يوم القيامة، وتقيم الحجة على العالمين بأن ما توصلتم إليه من حقائق كشف القرآن عنها من آلاف السنين.

---

(١) الصحاح في اللغة، ٢٤١/١، مادة: رتق، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.

(٢) المخصص، ٢٤٠/١٥.

(٣) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ٣٩٦/١، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر.

(٤) تهذيب اللغة، الأزهري، ٩٩٤/٣، مادة "رتق".

(٥) ينظر: لسان العرب، ٢٩٦/١٠، مادة "رتق"، تاج العروس، الزبيدي، ١٥٣٥/١، الناشر: دار الهداية.

(٦) ينظر: تفسير الطبري، ٤٣٠/١٨، الناشر: مؤسسة الرسالة، الأولى، ٢٠٠٠م، تفسير ابن كثير، ٣٣٨/٥، الناشر: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٩هـ، تفسير الثعالبي، ٥٠٠/٢، الناشر: دار إحياء التراث العربي، تفسير الخازن، ٣٩٥/٤، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م، فتح القدير، ٣٣٧/٤، الناشر: دار الكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

ثالثًا: موافقة تفسير الصحابة والتابعين: إن ما رجحه العلامة الطبري من أن معنى رتق السماء بالمطر والأرض بالنبات، استنادًا إلى تفسير ابن عباس –رضي الله عنهما–: كانتا رتقًا من المطر والنبات، ففتقنا السماء بالمطر والأرض بالنبات[١]، وذلك لدلالة قوله –تعالى– بعدها: **{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}** على أنه –جل ثناؤه– لم يعقب ذلك بوصف الماء بهذه الصفة إلا والذي تقدم من ذكر أسبابه[٢].

أجاب عنه الطاهر: بأن هذا المعنى لا يتعارض مع التفسير العلمي، لأنه ثمرة من ثمرات الفتق، فمن آثار فتق السماء المطر، كما أن «من آثار فتق الأرض إخراج النبات والجبال منها، وذلك فتق تكوين، وجعل فيها الطرق، أي الأرضين السهلة التي يتمكن الإنسان من المشي فيها عكس الجبال»[٣].

رابعًا: دلالة الخطاب: فالخطاب في الآية الكريمة وإن كان ظاهره خاصًا بالمخاطبين به، إلا أنه في أصله عام للجميع[٤]، فالإنكار على الذين كفروا، يتساوى في ذلك من كان في زمن الخطاب، ومن يسمعه إلى قيام الساعة.

خامسًا: حمل اللفظ على المعاني العامة التي تجمعه أولى من حملها على لفظ خاص: فقد تتغير الدلالة بتطور اللغة، فيحصل للفظ الواحد عدة معانٍ بسبب تطور الدلالة، ولا مانع من جمعها جميعًا مادام اللفظ يحتملها[٥].

فإذا كانت اللغة وجدت ليتفاهم بها الناس، فهم يتداولون ألفاظها، وهذا التداول بوساطة الأذهان والنفوس، وهي تختلف من شخص لآخر، ومن بيئة إلى أخرى،

(١) أورده الطبري في تفسيره، ٤٣٣/١٨.
(٢) السابق، ٤٣٣/١١.
(٣) التحرير والتنوير، ١٥٣/٩، بتصرف.
(٤) اللغة والمجتمع رأي ومنهج، د. محمود السعران، ص٨٨، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، لغة القرآن: دراسة توثيقية فنية، أحمد مختار عمر، ص٤٩، بتصرف، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.
(٥) أصول الفقه، أبو زهرة، ص١٩٨، الناشر: دار الفكر العربي. ومثل له بكلمة "فتنة" فقد استعملت بمعنى: وضع المعدن في النار، ثم صارت تستعمل بمعنى: الاضطهاد في الدين، ثم استعملت في الوقوع في الضلال.

ولذلك فإن الدلالة تتشكل تبعًا لذلك[١].

وهذه الضوابط تبرز مدى التوافق والتكامل بين التفسير العلمي والقرآن الكريم في فتق السماوات والأرض ورتقهما، وهو تكامل يدهش العقول، ويحملها على البحث، فكل ما توصل إليه العلم الحديث في دراسات متنوعة، وسنوات عديدة، أوجزها القرآن الكريم في آية واحدة تنطق بحقيقة علمية، موجزها: أصل الكون رتق ففتقه الله، وأصل الحياة الماء.

النموذج الثاني: بسط السماء بين القرآن الكريم والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}**[٢]، فيرى الطاهر أن الطيّ: لف بعد بسط، وأن نظام السماوات يقتضي بسطها، فإذا انتهى المقصود من النشر طوي، وأن هذا الطي مظهر من مظاهر انقراض النظام واختلاله، **فيقول:** «وطي السماوات: استعارة مكنية لتشويش تنسيقها، واختلال أبعاد أجرامها، فإن الطي: رد ولف بعض شُقق الثوب أو الوَرق على بعض بعد أن كانت مبسوطة منتشرة على نسق مناسب للمقصود من نشره، فإذا انتهى المقصود طوي المنشور،..»[٣]، وقال في تفسير قوله –تعالى–: **{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}**[٤]، «ومعنى طي السماء: تغيير أجرامها من موقع إلى موقع، واقتراب بعضها من بعض، كما تتغير أطراف الورقة المنشورة حين تطوى ليكتب الكاتب في إحدى صفحتيها، وهذا مظهر من مظاهر انقراض النظام الحالي»[٥].

(١) ينظر: الأسس الدلالية في تحليل النصوص العربية، د. محمود فهمي حجازي، ص١٧، الناشر: دار الثقافة، القاهرة.

(٢) سورة الزمر: من الآية ٦٧.

(٣) التحرير والتنوير، ٣٨٢/١٢.

(٤) سورة الأنبياء: من الآية ١٠٤.

(٥) السابق، ٢١٦/٩.

النظرة التكاملية بين القرآن والتفسير العلمي:

ما أصَّله الطاهر من دلالة الطي على بسط السماء يتفق تمامًا مع الحقائق العلمية، مع فضل السبق للقرآن الكريم، ودقة اختيار اللفظ، مع بديع النظم، فقد أكدت الدراسات العلمية: أن الكون مسطح ببعدين فقط، وتهيمن عليه المادة والطاقة المظلمة(١)، وأن الكون سوف يتوقف عن التمدد ولكنه لن ينهار إلى قطع صغيرة، واكتشف العلماء أن الكون يتسارع في توسعه، أي أن المجرات تسير بسرعة متغيرة مع الزمن، وأن لفظة "الطي" في القرآن الكريم أدق تعبير على شكل الكون المسطح، وأن هذا الشكل للكون هو المناسب لتوازنه وعدم اختلاله، فإذا ما أراد الله نهايته طوى المبسوط.

وأن قوله: **{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}** تشير إلى تغير مشهد الكون ليعود كما كان، وهو ما عبَّر عنه الطاهر بقوله: كما "الكاتب الذي يكتب الصحيفة ثم يطويها عند انتهاء كتابتها"(٢)، فالسماوات تصبح كتلة واحدة لتعود وتطوى كما كانت(٣).

ضوابط التفسير العلمي عند الطاهر:

أولاً: اللغة، فالطي: في لغة العرب ضد النشر، والنشر: البسط. قال الخليل (ت ١٧٠هـ): يقال: نشرت الثوب والكتاب نشرًا: بسطته(٤).

وقال ابن منظور (ت ٧١١هـ) الطيُّ: نقيض النشر(٥).

---

(١) **المادة المظلمة:** الجسيمات غير المرئية التي تربط الكون مع بعضه البعض. **الطاقة المظلمة:** هي القوة التي تحافظ على ترابط الكون، فهي المفسرة لتماسك النجوم والمجرات، وهي المسؤولة عن إبقائها متباعدة عن بعضها البعض. "الفيزياء للجميع"، لاندوا، ص١٧، ترجمة وتحقيق: داود المنير، بتصرف، دار مير للطباعة، ١٩٧٨م.

(٢) السابق، ١٥٩/١٨.

(٣) ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبدالله المصلح الصاوي، ص١٦٥، بتصرف، الناشر: الهيئة العالمية للإعجاز، ٢٠٠٨م، روائع الإعجاز في القرآن الكريم والسنة النبوية، هيثم جمعة هلال، ص٧٧، بتصرف، الناشر: دار الكتاب العربي.

(٤) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ٤/٢، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

(٥) لسان العرب، ١٨/١٥، مادة "طوى".

فتفسير الطي بمعنى البسط موافق للغة، حتى قال الطاهر: «والطي: ردُّ بعض أجزاء الجسم اللين المطلوق على بعضه الآخر، وضده النشر»[١].

ثانيًا: اتفاق المفسرين: فهم أكثر المفسرين من دلالة لفظة الطي: البسط، حتى قال النسفي: والمطويات: من الطي الذي هو ضد النشر[٢]. وقال ابن عادل (ت ٧٧٥هـ): واعلم أن أكثر المفسرين قال: إن السماوات مبسوطة كصحف مستوية لقوله –تعالى–: {**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**}[٣].

ثالثًا: دلالة استعمال المشترك في معنيين:

إن استعمال اللفظ المشترك لإفادة جميع مفهوماته لا يجوز عند أكثر المفسرين، ومنهم الزمخشري، فقد ذكر السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) أن "الظاهر من حال الزمخشري أنه لا يجيز الجمع بين الحقيقة والمجاز، ولا استعمال المشترك في معنيين"[٤]، وكذلك الرازي فقد قرر أن استعمال اللفظ المشترك لإفادة جميع مفهوماته معًا غير جائز[٥].

أما الطاهر فقد اعتبر أن ذلك غفلة من المفسرين، وأنه يجب حمل اللفظ على كل مفهوماته طالما يتحملها، فيقول: "حمل اللفظ المشترك على معانيه كافة، ما لم يكن عن بعض تلك المحامل صارف لفظي أو معنوي"، ثم قال: "وقد كان المفسرون غافلين عن تأصيل هذا الأصل، فلذلك كان الذي يرجح معنى من المعاني التي يحتملها لفظ آية من القرآن، يجعل غير ذلك المعنى ملغيًّا، ونحن لا نتابعهم على ذلك.." [٦].

وبيان ذلك: أن كل مفسر حمل "طي السماء" على معنى إما حقيقة،

(١) التحرير والتنوير، ٢١٥/٩.
(٢) تفسير النسفي، ٢٤٠/٣.
(٣) اللباب، ابن عادل، ١٢٠/١٣، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.
(٤) الدر المصون في علم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ٣٧٧٩/١، الناشر: دار القلم.
(٥) تفسير الرازي، ٣٩٩/٩.
(٦) التحرير والتنوير، ٥٦/١.

أو مجازًا، أو لا حقيقة ولا مجازًا، فانقسمت آراؤهم إلى ثلاثة:

أولها: الطي: بمعنى: الجمع والقبض، وذلك على من فسر اللفظ على الحقيقة، كالعلامة الطبري، على معنى: أن الله قبض السماوات والأرض جميعًا بيمينه، ورد على من أَوَّل اليمين بالقدرة، بأن الأخبار[1] التي ذكرناها عن الرسول -ﷺ- وعن الصحابة تشهد ببطلانه[2].

ثانيها: الطي: بمعنى الهلاك والفناء، وذلك على من فسرها بالمجاز، قال القرطبي (ت ٦٧١هـ): مطويات بيمينه: ليس يريد طيًا بعلاج وانتصاب، وإنما المراد بذلك الفناء والذهاب، يقال: قد انطوى عنا ما كنا فيه وجاءنا غيره، وانطوى عنَّا دهر، بمعنى المضي والذهاب، واليمين في كلام العرب تعني: القدرة، والملك، فقوله -تعالى-: **{أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}**[3] يريد: الملك، وقوله -تعالى-: **{لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ}**[4] أي: القوة والقدرة[5].

(١) يشير إلى الحديث المتفق عليه عن عبدالله بن مسعود -ﷺ- قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله -ﷺ- فقال: يا محمد. إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي -ﷺ- حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله -ﷺ-: **{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ}** أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب: التفسير، باب: "وما قدروا الله حق قدره"، ١٨١١/٤، برقم: ٤٥٣٣]، ومسلم [كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: صفات المنافقين، ٢١٤٧/٤، برقم: ٢٧٨٦].

(٢) تفسير الطبري، ٣٢٤/٢١.

(٣) سورة النساء: من الآية ٣.

(٤) سورة الحاقة: الآية ٤٥.

(٥) تفسير القرطبي، ٢٧٨/١٥، الناشر: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٦م.

ثالثها: لا إلى جهة حقيقة ولا إلى مجاز: فيحمل المعنى على عظم شأن الله وسلطانه، حتى قال النسفي: والمراد بهذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه: تصوير عظمته، والتوقيف على كنه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز(١). ووافقه كثرة من المفسرين(٢).

أما الطاهر فقد حمل دلالة لفظ الطي على معنيين:

أولهما: تمثيل عظم قدرة الله سبحانه وسلطانه، مع بيان أن ما توهمه اليهود توزيعًا على الأصابع في الحديث إنما هو مجاز عن الأخذ والتصرف، وهو المراد بقوله –تعالى–: **{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}**(٣).(٤)

ثانيهما: الطي: بمعنى نقيض النشر، والنشر بمعنى البسط، ليوافق التفسير العلمي(٥).

أقول: ولا شك أن حمل اللفظ على المعنيين عند الطاهر له وجاهته لما فيه من توسيع المعاني وكثرتها، فالمعنيان مرادان بلا تعسف أو تكلف.

وقد أقر الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) أن: "الاسم المشترك إذا ورد مطلقًا كـ "العين" و "القرء" عمم في جميع مسمياته، إذا لم يمنع منه قرينة، وكذلك اللفظ الذي يستعمل مجازًا في محل، وحقيقة في محل يعمم، كلفظ "اللمس" يحمل في نقض الطهارة على المس باليد، والجماع"(٦).

---

(١) تفسير النسفي، ٢٣٩/٣.

(٢) ينظر: الكشاف، ٢٢٥/١، تفسير الرازي، ٢٣٤/٣، تفسير ابن كثير، ١١٣/٧، البحر المحيط، ١٢/٣، فتح القدير، ٣٠٢/٦.

(٣) أبان النووي أن إطلاق اليدين لله –تعالى– فمتأول على القدرة، وكنى عن ذلك باليدين لأن أفعالنا تقع باليدين فخوطبنا بما نفهمه ليكون أوضح، وأوكد في النفوس. "شرح النووي على مسلم، ١٣٢/١٧".

(٤) التحرير والتنوير، ٣٨٢/١٢، بتصرف.

(٥) السابق ٣٨٢/١٢.

(٦) المنخول من تعليقات الأصول، أبو حامد الغزالي، ٢١٩/١، الناشر: دار الفكر المعاصر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨م.

النموذج الثالث: مادة خلق السماء بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: {**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**}[1] إذ يرى الطاهر أن هذه الآية المباركة تشتمل على وصف علمي دقيق لمادة السماء قبل تكوينها وأنها كانت مثل الدخان، وهي حقيقة علمية ما وصل إليها العلماء إلا في أوقات معاصرة.

فيقول: «ومعنى "وهي دخان" أن أصل السماء هو ذلك الكائن المشبه بالدخان، أي: أن السماء كونت من ذلك الدخان.. فتكون مادة السماء موجودة قبل وجود الأرض»[2]. وهو تفسير يتميز بأمور أهمها:

أولاً: موافقة اللغة: فاللفظة معروفة في لغة العرب على الدخان المستصحب للهب. قال ابن سيده (ت ٤٥٨هـ): ودَخَنْتُ النار ندخُن وندخِن دُخَانًا ودُخُونًا: ارتفع دخانها[3].

وقال الراغب (ت ٥٠٢هـ): الدخان كالعُثَّان المستصحب للهب، قال –تعالى–: {**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**} أي: هي مثل الدخان، إشارة إلى أنه لا تماسك لها[4]. وفي اللسان: الدخان: دخان النار المعروف وجمعه أدخنة[5].

(١) سورة فصلت: الآية ١١.

(٢) التحرير والتنوير، ٨/١٣.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٣٢٠/٢، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

(٤) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ٤٦٢/١. والعُثان: الدخان، وعثّن ثيابه بالطيب: دخّنها، "أساس البلاغة"، الزمخشري، ٣٠١/١.

(٥) لسان العرب، ١٤٩/١٣، مادة "دخن".

ثانيًا: النظرة التكاملية بين القرآن والتفسير العلمي:

إن التعبير القرآني بـ "الدخان" كمادة لأصل السماء وتكوينها –على ما ذهب إليه الطاهر– ليتفق تمامًا مع التفسيرات العلمية التي أكدت أن مادة السماء قبل تكوينها وتسويتها كانت مثل الدخان، واعترف العلماء بعجزهم لأنهم لم يتعرفوا على هذه الحقيقة العلمية إلا مؤخرًا، فقد كان المعتقد عندهم أن السماء ضباب، فإذا بهم – بعد التقدم العلمي– يكتشفون أنها كانت دخانًا، لأن الضباب بارد، والدخان حار وفيه حركة، وهي من أشد الحقائق تأثرًا عند علماء الإعجاز العلمي(١).

ثالثًا: الدقة في التفسير:

لقد حصر الإمام ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) آراء المفسرين في الآية الكريمة في قولين:

أحدهما: أنه لما خلق "الماء" أرسل عليه الريح فثار منه دخان فارتفع وسما، فسماه سماءً.

والثاني: أنه لما خلق الأرض أرسل عليها نارًا، فارتفع منها دخان فسما(٢).

ونقل الشوكاني قول المفسرين أن هذا الدخان: بخار الماء(٣).

وهذ التفسير يناقش من جهتين:

أولهما: أن معتمده في ذلك كما ذكر الإمام أحمد شاكر (ت ١٣٧٧هـ) في تحقيقه لتفسير الإمام الطبري على أخبار يرتاب في سندها، ولا يحتج بما فيها(٤).

(١) ينظر: التفسير العلمي للآيات الكونية، تاريخه وموقف العلماء منه، د. بكر زكي عوض، ص٢٠٨، الناشر: مكتبة الكتب، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، محمد السيد الأرناؤوط، ص١٧٠.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، ٢٩٩/٥، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٣) فتح القدير، ٣٤٤/٦.

(٤) تفسير الطبري، ٤٣٦/١، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

ثانيهما: أن فارقًا كبيرًا بين البخار "بخار الماء" الذي قال به المفسرون، وبين لفظة "الدخان" الواردة في الآية الكريمة، فتخصيص "الدخان" دون: "بخار- هباء- هواء" إشارة قوية إلى أن مادة السماء الأولية قبل خلقها كانت لها من الصفات المهمة ما يشبه الدخان العادي الذي يتصاعد من النيران، أي أنها كانت مظلمة بذاتها، مفككة الأجزاء، خفيفة ومنتشرة في الفضاء كما ينتشر السحاب، ساخنة إلى حد ما، إذ الدخان لا يصدر إلا عن أصل ناري(١)، وهي صفات لا تتحقق إلا في الدخان كما قرر أهل التفسير العلمي.

أقول: وبهذا يظهر مدى الترابط بين الألفاظ القرآنية والتفسير العلمي عند الطاهر، مع تجنب الروايات التي لا تقوم بها حجة، وظهرت ملكات الإمام في التفسير العلمي، وبلغ فيه الصدارة، وكان أهم ما يميزه:

- التوفيق بين معطيات القرآن ومعطيات العلم الحديث.
- الالتزام بما يدل عليه اللفظ واستعمالاته في لغة العرب.
- تجنب التكلف في التفسير والتعسف في التأويل.
- التفسير العلمي للآيات من خلال دلالات الألفاظ والتعمق فيها.
- عدم الاقتصار في تفسير الآية على أقوال المفسرين بل له انفرادات تميز بها.
- ولعل أهم ما قام عليه تفسيره العلمي مراعاة التناسب، سواء كان تناسب المعاني القرآنية مع بعضها البعض، أم تناسب التفسير العلمي مع النظم وعدم تعارضه مع السياق، أو تناسب المعاني مع المقاصد.

وهي أسس قام عليها تفسيره العلمي، جنبته الزلل -إلى حد كبير- وجعلت له الصدارة في هذا العلم.

❁ ❁ ❁

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية، ص٢٠٨.

المطلب الثاني
التفسير العلمي لآيات المجموعة الشمسية

توطئة:

المجموعة الشمسية أو النظام الشمسي أو المنظومة الشمسية: هي النظام الكوكبي الذي يتكون من الشمس وجميع ما يدور حولها من أجرام(١).

وللقرآن الكريم حديث مفصل عن المجموعة الشمسية بحقائق وقف علماء التفسير العلمي أمامها في دهشة وحيرة، لما حوته هذه الآيات المباركات من علوم ومعارف تكشف عن صدق القرآن الكريم وإعجازه، وقد وعد القرآن الكريم بكشف هذه الآيات الكونية في قوله –تعالى–: **{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ}**(٢) والآيات هنا عامة، سواء آيات القرآن أو الخارجة عنه في الكون المستور، حتى قال الطاهر: «المراد بالآيات: ما يشمل الدلائل الخارجة عن القرآن، وما يشمل آيات القرآن، فإن من جملة معنى رؤيتها رؤية ما يصدق أخبارها ويبين نصحها إياهم إلى خير الدنيا والآخرة، والآفاق: الناحية من الأرض..، والناحية من السماء..، والأحسن أن يكون في الآفاق على عمومه الشامل لأفقهم»(٣)، ولقد تتبع الطاهر هذه الآيات وله فيها تفسيرات علمية تستحق التأمل، وانفرادات تستحق البحث والدراسة، أحصر أهمها فيما يلي:

النموذج الأول: ضياء الشمس ونور القمر بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا}**(٤)، مع قوله –تعالى–: **{وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}**(٥).

(١) كواكب المجموعة الشمسية، سناء مصطفى عبيد، ص٢٧، الناشر: دار المعارف.
(٢) سورة فصلت: من الآية ٥٣.
(٣) التحرير والتنوير، ٧٢/١٣.
(٤) سورة يونس: من الآية ٥.
(٥) سورة نوح: من الآية ١٦.

فيرى الطاهر أن الضياء والسراج بمعنىً واحد[١]، وأن التفرقة بين الضياء والنور يتوافق مع التفسير العلمي، فيقول: "... وفي جعل القمر نورًا: إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته، فإن القمر مظلم، وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعُّض وتمام هو أثر ظهوره هلالاً، ثم اتساع استنارته إلى أن يصير بدرًا، ثم ارتجاع ذلك، وفي تلك الأحوال يضيء على الأرض إلى أن يكون المُحاق[٢]، وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجًا لأنها ملتهبة، وأنوارها ذاتية فيها، صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر، مثل أنوار السرج تملأ البيوت، وتُلمع أواني الفضة ونحوها مما في البيت من الأشياء المقابلة"[٣].

أقول: ما ذكره الطاهر يتفق مع التفسير العلمي الذي قرره العلماء، وحاصله: أن الشمس لهب متقد مضيء، وفي درجة حرارة عالية بحيث ينبعث منها الضياء، وأن ضوء القمر هو الضوء الذي يصل إلى الأرض من القمر، والناتج بشكل أساسي عن انعكاس أشعة الشمس من على جرم القمر[٤]، فضياء الشمس: ذاتي، ونور القمر: بانعكاس أشعة الشمس عليه.

ضوابط التفسير العلمي عند الطاهر:

يرى الطاهر أن دلالة الألفاظ في الآية الكريمة "ضياء- سراج- نور" تمثل توافقًا وتكاملاً بين القرآن الكريم والتفسير العلمي، وقوله مصحوب بضوابط أهمها:

أولاً: اللغة:

فيفرق أولاً بين دلالة لفظتي "ضياء- نور" واستعمال الأولى مع الشمس، والثانية مع القمر، بأن "الضياء: النور الساطع القوي، لأنه يضيء للرائي، وهو اسم مشتق من الضوء، وهو النور الذي يوضح الأشياء، فالضياء أقوى من الضوء..،

(١) التحرير والتنوير، ٣٣٩/١٥.

(٢) **المُحاق:** أن يستتر القمر ليلتين فلا يرى غدوة ولا عشية، "المحكم والمحيط الأعظم"، ابن سيده، ٤٢٠/١.

(٣) التحرير والتنوير، ٣٣٩/١٥.

(٤) ينظر: التفسير العلمي للآيات الكونية، د. بكر زكي عوض، ص٣٨، بتصرف.

والنور: الشعاع، وهو مشتق من اسم النار، وهو أعم من الضياء، يصدق على الشعاع الضعيف والشعاع القوي، فضياء الشمس نور، ونور القمر ليس بضياء، هذا هو الأصل في إطلاق هذه الأسماء.." (١).

وما ذكره الطاهر توافق عليه أهل اللغة:

ففرق بينهما أبو هلال العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ): بأن الضوء: ما كان من ذات الشيء المضيء، والنور: ما كان مستفادًا من غيره(٢).

وفرق بينهما الراغب (ت ٥٠٢هـ): بأن الضوء أخص من النور(٣)، وكذلك الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) في تاج العروس(٤).

وفي المعجم الوسيط: ".. الضوء: لما بالذات كضوء الشمس والنار، والنور: لما بالعرض والاكتساب من جسم آخر كنور القمر، وفي التنزيل: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا}**"(٥).

فاللغة على تغاير اللفظتين، وأن عدم التفرقة بينهما هو من الخلط بين دلالات الألفاظ.

ثانيًا: التوافق مع المفسرين: فالمفسرون على التفرقة بينهما، وأن الضوء يناسب الشمس لعظمها، والنور يناسب القمر لأن نوره بالعرض وليس بالذات.

يقول الزمخشري: والضياء أقوى من النور(٦).

ويرى القرطبي أن الضياء: ما يضيء الأشياء، والنور: ما يبين فيخفى لأنه من النار(٧).

ويرى أبو حيان أن الشمس لما كانت أعظم جرمًا خصت بالضياء لأنه أعظم،

(١) التحرير والتنوير، ٤٢٧/٦.
(٢) الفروق اللغوية، ٣٣٢/١.
(٣) المفردات، ١٤٩٥/١.
(٤) تاج العروس، ٣٥٧٨/١.
(٥) المعجم الوسيط، ١٣٣٢/١.
(٦) الكشاف، ١٤٧/٧.
(٧) تفسير القرطبي، ٣٠٩/٨.

وهو الذي له سطوع ولمعان، وهو أعظم من النور، فخص الأعظم بالأعظم[١]. ويرى الشوكاني أن الضوء: ما كان بالذات، بينما النور: ما كان بالعرض[٢].

ثالثًا: القطع بعدم الترادف ما أمكن:

الترادف: أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة فتبحث عن أصل كل اسم منها فتجده مفض إلى معنى[٣].

وقد ذكر العلامة الزركشي أنه يجب على المفسر مراعاة استعمالات، منها: القطع بعدم الترادف ما أمكن، فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب، وإن اتفقوا على جوازه في الإفراد[٤].

وذكر أن من أجل الأمثلة على ذلك قوله -تعالى-: **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ}**[٥] فقوله: "ذهب الله بنورهم" ولم يقل: بضوئهم، لأن النور أعم من الضوء، إذ يقال على القليل والكثير، وإنما الضوء على النور الكثير[٦].

وعنون لها الإمام السيوطي بقوله: قاعدة: من الألفاظ التي يظن بها الترادف وليست منه[٧]. يضاف أن فصاحة القرآن ناتجة عن اختلاف الكلام لاختلاف المقام، وهي عبارة توجز فصلاً للإمام الزركشي بعنوان: "اختلاف المقامات ووضع كل شيء في موضع يلائمه"[٨].

فاستدل الطاهر بهذه القاعدة: القطع بعدم الترادف ما أمكن، على الفارق بين

(١) البحر المحيط، ٢٦٠/٦.
(٢) فتح القدير، ٣٤٧/٣.
(٣) الخصائص، ابن جني، ١١٣/٢، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.
(٤) البرهان، ٧٨/٤، بتصرف.
(٥) سورة البقرة: من الآية ١٧.
(٦) السابق، ٤٠٢/٣.
(٧) الإتقان، ٢١٩/١.
(٨) البرهان، ١٢٨/٢.

دلالة اللفظتين، وأن هذا الفارق يتناسب ويتفق تمامًا مع التفسير العلمي، فيقول: "ولما جعل النور في مقابلة الضياء تعين أن المراد به نورٌ ما.." (١).

فالتعبير عن أشعة الشمس بالضياء، وتسمية القمر نورًا يتفق تمامًا مع ما توصلت إليها التفسيرات العلمية التي قررت أن الشمس ضوءها ذاتي، وأن القمر نور بانعكاس أشعة الشمس عليه، وهو من السبق العلمي للقرآن الكريم.

رابعًا: مرونة اللفظ القرآني لاستيعاب المعاني:

فالألفاظ القرآنية لها دلالات متنوعة لما فيها من مرونة هائلة، وقدرات استيعابية عظيمة للمعاني، لما فيها من تجديد التراكيب، وأساليب التعبير، فالقرآن الكريم كما كان حافظًا للغة، فهو "حافظ على ثروتها وحمايتها من الجمود والركود"(٢) فتتجدد الألفاظ وتتعدد المعاني مع تطور العلوم، وتفاوت الأفهام، فيحمل القرآن الجميع على التفكير في آيه، ويأخذ كل على قدره وتخصصه العلمي.

حتى قال البوطي (ت ١٤٣٤هـ): "فالعامي من العرب يفهم منها أن كلًّا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء على الأرض، وإنما غاير في التعبير بالنسبة لكل منهما، تنويعًا للفظ، وهو معنى صحيح تدل عليه الآية، والمتأمل من علماء العربية يدرك ما وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارةَ؛ فلذلك سماها "سراجًا"، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه، وهو –أيضًا– معنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة، أما الباحث المتخصص في شؤون الفلَك فيفهم من الآية إثبات أن القمر جرم مظلِم، وإنما يضيء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التي شبهها بالسراج"(٣).

ومرونة اللفظ القرآني واستيعابه للمعاني، وعدم جموده، شريطة أن لا يخرج

(١) التحرير والتنوير، ٤٢٧/٦.

(٢) فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص٧٩، الناشر: دار الفكر، بيروت.

(٣) من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص١٤٤، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٩م.

عن مهيع القرآن، من أهم القواعد التي أصلها الطاهر في مقدمات تفسيره[١]، بل واستخرج بها واستنبط منها دلالات التفسير العلمي، بدلالة مرونة اللفظ وحمله على معانٍ متنوعة، وعدم قصره على معنى واحد فقط، مع ضبط هذه المعاني بقواعد اللغة، مع ضابط السياق "فلا يجوز حمل الكلام على ما يخالفهما"[٢].

النموذج الثاني: جري الشمس بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: {**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى**}[٣]، مع قوله –تعالى–: {**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى**}[٤]، مع قوله –تعالى–: {**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**}[٥].

إذ يرى الطاهر أن الجري: المشي السريع، استعير لانتقال الشمس في فلكها، وانتقال الأرض حول الشمس، وانتقال القمر حول الأرض، تشبيهًا بالمشي السريع، لأجل شسوع المسافات التي تقطع في خلال ذلك[٦].

ونقل عن العلامة الزمخشري الفارق بين الأسلوبين: {لأجل} و {إلى أجل} بأن اللام للاختصاص، و "إلى" للانتهاء، وكلاهما ملائم للغرض[٧].

التوافق مع التفسير العلمي: ما أصَّله الطاهر في تفسيره يتفق تمامًا مع ما قرره العلماء أن الشمس في حركة دائمة، وقد كان المُعتقد أن الشمس ثابتة، حتى جاء القرن العشرون فتوصلوا إلى حقائق علمية مفادها: أن الشمس في حركة دائمة، وأنها تسير في مسافات شاسعة، وأن النجوم –كذلك– يفصلها عن بعضها مسافات

(١) التحرير والتنوير، ١/١٠٠.

(٢) نظرية السياق القرآني: دراسة تأصيلية دلالية نقدية، د. المثنى عبدالفتاح محمود، ص٥٤، الناشر: دار وائل للنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

(٣) سورة الرعد: من الآية ٢.

(٤) سورة لقمان: من الآية ٢٩.

(٥) سورة يس: الآية ٣٨.

(٦) التحرير والتنوير، ١١/١٤٤.

(٧) السابق، ١١/١٤٤، بتصرف، أما اللام في "المستقر" فهي للتعليل على ظاهرها، أي: تجري لأن تستقر، أي: لأجل أن ينتهي جريها كما ينتهي سير المسافر إذا بلغ إلى مكانه فاستقر فيه، "التحرير والتنوير"، ١٢/٣٨.

شاسعة يصعب معها أن يصطدم نجم بآخر(١).

ضوابط التفسير العلمي عند الطاهر:

أولها: اللغة: فالجري لغة يرد بمعنى السرعة والحركة والانتقال.

قال الراغب: الجري: المر السريع، وأصله كمر الماء(٢).

وقال الزبيدي: "والشمس تجري" سميت بذلك لجريانها من القطر(٣).

فاللغة تتسع للفظة "الجري" وأظهر معانيها هنا أن تكون بمعنى التحرك والانتقال من مكان لآخر مع الالتزام بمركز يحدث حوله هذا الجري والتحرك.

ثانيها: الاتفاق مع المفسرين والانفراد عنهم: إذا كان المفسرون قد حملوا جريان الشمس على ظاهره المرئي أمام العيون وهو جريانها من المشرق إلى المغرب، فإنهم بذلك قد حملوا الجري على المعنى الحقيقي(٤).

فقد اتفق معهم الطاهر في هذا الجانب، إلا أنه انفرد عنهم بالجمع بين الحقيقة والمجاز ليتفق مع التفسير العلمي ولا يتعارض مع التفاسير، على اعتبار أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن مرادة كلها ما لم يمنع من ذلك مانع.

فيقول: والجري: حقيقته: السير السريع، وهو لذوات الأرجل، وأطلق مجازًا على تنقل الجسم من مكان إلى مكان تنقلاً سريعًا بالنسبة لتنقل أمثال ذلك الجسم، وغلب هذا الإطلاق فساوى الحقيقة، وأريد به السير في مسافات متباعدة جدًّ التباعد، فتقطعها في مدة قصيرة بالنسبة لتباعد الأرض حول الشمس.. والمعروفة لأهل العلم بالهيئة تفصيلاً واستدلالاً، وكل هؤلاء مخاطبون بالاعتبار بما بلغه علمهم(٥).

---

(١) ينظر: المعارف الكونية بين العلم والقرآن، د. منصور محمد حسب النبي، ص١٠٤، الناشر: دار المعارف، من روائع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. عاطف المليجي، ص٧٧، الناشر: النهار للنشر، من الإعجاز الإلهي، أ.د. عبدالمحسن العبادي، ص٣٩، المكتبة الأكاديمية.

(٢) مفردات القرآن، ٢٤٧/١.

(٣) تاج العروس، ٨٣٢٧/١.

(٤) ينظر: تفسير الطبري، ٥١٧/٢٠، بحر العلوم، ٤٧٣/٣، تفسير الرازي، ٤٢/١٣، تفسير القرطبي، ٢٨/٢٥، تفسير ابن كثير، ٥٧٧/٦، تفسير أبي السعود، ٤١٣/٥، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٥) التحرير والتنوير، ٣٨/١٢.

ثالثها: دلالة الإعجاز الأسلوبي للقرآن لمقتضى كل حال:

وأرى –والله أعلم– أنها من أهم معالم التجديد في تفسير الطاهر، إذ يرى أن القرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معاني من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم، فمعتاد البلغاء إيداع المتكلم معنى يدعوه إليه غرض كلامه وترك غيره، والقرآن ينبغي أن يودع من المعاني كل ما يحتاج إليه السامعون إلى علمه، وكل ما له حظ في البلاغة مهما كانت درجته(١).

ويرى أن القرآن لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقًا بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحمله الألفاظ في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها، التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات ليحصل تمام المقصود(٢).

فالقرآن الكريم لما كان هداية للبشر فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن ينزل بأسلوب لا يصدم البدهي المسلم به عند الناس فيكذبونه، ولا ينافي حقائق الأشياء فيكون ذلك داعيًا إلى تكذيبه، وهذا من أعجب عجائب القرآن التي لا تنقضي، ومن ذلك: قوله: **{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا}**(٣) فإن حركة الشمس قد تنطبق على المشاهد البادي من حركتها في السماء من المشرق إلى المغرب، غير أن العلم الحديث يثبت إعجاز الآية علميًا باكتساب حركة ذاتية للشمس(٤).

فلفظة "تجري" عند الطاهر تمثل خطابًا للإنسان على أي مستوى كان، وفي أي مرحلة يمر بها، ففيها من المعاني ما يجعل القارئ لها بمقدوره فهمها والاعتبار بها، وهي دلالة قام عليها التفسير العلمي عند الطاهر، لها وجاهتها ودقتها، وتثبت ما للطاهر من ملكات تفسيرية وعلمية تستحق التأمل والبحث والدراسة.

---

(١) السابق، ٩٣/١-٩٤، بتصرف.

(٢) السابق، ٥٢/١.

(٣) سورة يس: من الآية ٣٨.

(٤) اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم، د. محمد إبراهيم الشريف، ص١٦١، الناشر: دار السلام للطباعة، ملامح كونية في القرآن، شاكر عبدالجبار، ص٧٠، مكتبة الشرق الجديد، ١٩٨٥م.

النموذج الثالث: السنة الشمسية والقمرية بين القرآن والعلم:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا}**[(١)]، إذ يرى الطاهر –رحمه الله– أن هذه الآية تحمل تفسيرًا علميًا للفارق بين السنة الشمسية والقمرية، وأن الفرق بينهما أحد عشر يومًا، وبذلك يقع في كل ثلاث وثلاثين سنة فرق قدره سنة، وعلى ذلك فإن كل مائة سنة تزيد ثلاث سنوات، والثلاث مائة سنة شمسية يقابلها ثلاثمائة وتسع سنوات قمرية، وهي حقيقة علمية اطمأن إليها العلم الحديث، وسبق بها القرآن، وما كان لأحد أن يتعرف عليها قبل نزول هذا الكتاب المعجز.

فيقول: "واليهود الذين لَقَّنوا قريشًا السؤال عنهم يؤرخون الأشهر بحساب القمر، ويؤرخون السنين بحساب الدورة الشمسية، فالتفاوت بين أيام السنة القمرية وأيام السنة الشمسية يحصل منه سنة قمرية كاملة في كل ثلاث وثلاثين سنة شمسية، فيكون التفاوت في مائة سنة شمسية بثلاث سنين زائدة قمرية..، وبهذا تظهر نكتة التعبير عن التسع السنين بالازدياد.." [(٢)].

ضوابط التفسير العلمي عند الطاهر:

أولها: موافقته للحقائق العلمية، وما توصلت إليه حقائق الأبحاث، فيقول: "وهذا من علم القرآن وإعجازه العلمي الذي لم يكن لعموم العرب علم به"[(٣)] وحمل الكلام على تعدد المعاني أولى من حمله على معنى واحد، فبعد أبحاث مطولة تحقق العلماء من قضايا علمية أهمها:

أن التقويم القمري "الهجري": هو تقويم قمري يعتمد على دورة القمر لتحديد الأشهر، اثنا عشر دورة حول الأرض، كل دورة تُكوِّن شهرًا قمريًا واحدًا.

وأن التقويم الشمسي: تقويم مرتبط في حساب أيامه وشهوره وسنواته بدورة

(١) سورة الكهف: الآية ٢٥.
(٢) التحرير والتنوير، ٨/٣٦٠.
(٣) السابق، ٨/٣٦٠.

الشمس، وموقع الأرض من الشمس[١].

وفي هذه الحقيقة قال –تعالى–: {لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}[٢] "أي: عدد السنين بحصول كل سنة باجتماع اثني عشر، .. ولما اقتصر في هذه الآية على معرفة عدد السنين تعين أن المراد بالحساب حساب القمر، لأن السنة الشرعية قمرية"[٣].

وتوصلوا –كذلك– أن السنة الميلادية تزيد عن الهجرية بأحد عشر يومًا تقريبًا كل عام وعللوا ذلك بما ذكره الطاهر[٤].

ثانيها: موافقته لجل المفسرين: ذكر الطاهر في تفسيره أن كلامه ليس بدعًا من المفسرين فقال بعد تفسيره العلمي: ".. كذا نقله ابن عطية عن النقاش المفسر"[٥] وبالتتبع يثبت أن جل المفسرين[٦] ذكروا هذا التفسير العلمي وأن الزيادة "تسعًا" لما بين الحسابين الشمسي والقمري.

ثالثها: دلالة شمول الخطاب: يرى الطاهر أن أدق سمات القرآن الكريم أنه يخاطب الجميع، فخطابه شمل العالمين من المخاطبين على تنوع أجناسهم وألسنتهم وأديانهم، فلو قال القرآن: ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنوات، لسكت بذلك عن إيراد التقويم الشمسي، ولو قال: ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة ميلادية، لأغفل التقويم القمري، فجمع بين الخطابين ليفهم الجميع مع اتحاد اللفظ.

---

(١) المعجزة القرآنية: الإعجاز العلمي والغيبي، محمد حسن هيتو، ص١٨٨، بتصرف، الناشر: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م.

(٢) سورة يونس: من الآية ٥.

(٣) التحرير والتنوير، ٤٢٨/٦.

(٤) ينظر: من آيات الإعجاز العلمي: السماوات في القرآن، د. زغلول النجار، ص٥٠٧.

(٥) التحرير والتنوير، ٣٦٠/٨.

(٦) ينظر: تفسير الماوردي، ٤٧٢/٢، دار الكتب العلمية، بيروت، تفسير البغوي، ٣٤/٣، دار طيبة، ١٩٨٩م، تفسير القرطبي، ١٨٧/١٠، تفسير أبي حيان، ٤٣٨/٧، تفسير ابن كثير، ٧٠/٣. تفسير النيسابوري، ١٧٣/٥، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ، السراج المنير، ٢٢٢١/١، تفسير أبي السعود، ٢٥٤/٤، البحر المديد، ابن عجيبة، ٣٩١/٣، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م، الطبعة الثانية، فتح القدير، ٣٨١/٤، أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٣٨١/٢، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

فيقول: "والمعنى: أن يقدر لبثهم بثلاثمائة وتسع سنين، فعبر عن هذا العدد بأنه ثلاثمائة سنة وزيادة تسع، ليعلم أن التقدير بالسنين القمرية المناسبة لتاريخ العرب والإسلام، مع الإشارة إلى موافقة ذلك المقدار بالسنين الشمسية التي بها تاريخ القوم الذين منهم أهل الكهف وهم أهل بلاد الروم.." [(١)]. فكانت بلاغة القرآن في منتهى الدقة والإعجاز النظمي، إذ جمع بين التقويمين بما يناسبهما في لفظة واحدة.

رابعها: دفع توهم اشتمال القرآن على ألفاظ لا فائدة منها:

إن اختيار المفردة القرآنية من أدق أسرار إعجازه، وأخص عجائبه التي لا تنفد، حتى قال ابن عطية (ت ٥٤٢هـ): "كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وميز الكلام"[(٢)].

وإذا كان أهل اللغة قد اتفقوا على أن للكلمات أرواحًا، فإن استطعت أن تجد الكلمة التي لا غنى عنها، ولا عوض منها، ثم وضعتها في الموضع الذي أعدَّ لها، وهُندس عليها، ونفخت فيها الروح التي تعيد لها الحياة، وترسل عليها الضوء، ضمنت الدقة والقوة، والصدق والطبيعة والوضوح، وأمنت الترادف والتقريب والاعتساف[(٣)]، فما بالنا بلغة القرآن وحسن رونقه ودقة ألفاظه.

لهذا أبان الطاهر أن لفظة "وازدادوا تسعًا" ليست من قبيل الحشو، ولا الزيادة التي لا معنى لها، ولا فائدة منها، وإنما هي نكتة من نكات القرآن التي تجمع بين البلاغة في مخاطبة الجميع بلفظ واحد، مع ما فيها من توافق وتكامل مع الحقائق العلمية، فيقول: ".. وبهذا تظهر نكتة التعبير عن التسع السنين بالازدياد"[(٤)].

(١) التحرير والتنوير، ٣٦٠/٨.
(٢) المحرر الوجيز، ٥٢/١.
(٣) دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، ص١٥، طبعة نهضة مصر، ١٩٦٧م.
(٤) التحرير والتنوير، ٣٦٠/٨.

وحاصل ما تقدم:

- أن الطـاهر –رحمـه الله– تعـرض لأغلـب التفسـيرات العلميـة المتعلقـة بنظـام المجموعة الشمسية وجميع ما يدور حولها من أجرام.
- أن التفسيرات العلميـة فـي التفاسير وعند العلماء لا تعبر عن الإحاطـة الكاملـة بجميع جوانب التفسيرات العلمية، وإنما بقدر الطاقة والوسع وبما أدركوا من تطور علمي.
- أن الطاهر –رحمه الله– لا يعتمد من التفسيرات العلمية إلا ما كان منضبطًا مع أصول اللغة، أما ما عارضها فلا محل له للقبول عند الإمام.
- التميز البَيِّن عند الطاهر في هذا المجال من التفسير العلمي، فتراه –في أغلب الأحيان– يتفق مع المفسرين إجمالاً، وينفرد عنهم بشروح وتفسيرات علمية لا تراها بهذه الدقة وهذا التحرر المنضبط بقواعده إلا عند الطاهر في التحرير والتنوير.

❁ ❁ ❁

المطلب الثالث

التفسير العلمي لآيات الجبال

توطئة: إن الجبال كمنظومة كونية يرد ذكرها في القرآن الكريم بصيغة الجمع، فإذا ما وردت بصيغة المفرد فإنه يحمل على جبل خاص، كالجبال التي شهدت مع إبراهيم –عليه السلام– كيف يحي الله الموتى، أو جبل دُكَّ في الأرض حينما تجلَّى الله له، أو جبل نتق فوق بني إسرائيل، أو جبل يعتقد ابن نوح –عليه السلام– جهلاً منه– أنه ينجيه من الغرق(١).

وحديث القرآن الكريم عن الجبال مع ما فيه من الامتنان بنعم الله على خلقه، ففيه –كذلك– دلالات متنوعة تحمل على التأمل والاعتبار لما فيها من حقائق ودقائق لم يكتشفها العلماء إلا في العصر الحديث.

وإذا كان الحافظ ابن كثير –رحمه الله– يرى أنه قد نبه بقوله –تعالى–: **{أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}**(٢) ذهن الإنسان البدوي الذي تتعلق رؤيته وحياته بهذه الأربعة لكي يستدل بها على قدرة الله –سبحانه(٣). فهذا لا يتعارض مع حمل ما في الآيات من حقائق علمية تحمل على الاعتبار في عصر التطور العلمي كما حملت في وقت نزوله، لا سيما وفهم الآيات بما يوافق التطور العلمي يحمل الإنسان على الوقوف على مزيد من عظمة القرآن الكريم، وذلك لأن "الإسلام دين لا ترسخ قواعده، ولا تنضج معارفه إلا في جو علمي واسع الآفاق، ولا أدري كيف يفهم عظمة القرآن الكريم رجل لم يدرس علوم الأرض والسماء وما بينهما"(٤). من هذا المنطلق تتبع الطاهر –رحمه الله– آيات الجبال في القرآن الكريم، وما توصل

(١) آيات الآفاق: تدبر في أماكن ذكرت في القرآن الكريم، حازم عوض، ص٢١، بتصرف، وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠٢م.

(٢) سورة الغاشية: الآيات ١٧–٢٠.

(٣) تفسير ابن كثير، ٥٤/٤، بتصرف.

(٤) علل وأدوية، للشيخ محمد الغزالي، ص١٤١، الناشر: دار نهضة مصر، الطبعة الأولى.

إليه العلم الحديث فيها من حقائق، مع مراعاة ضوابط التفسير العلمي الصحيح، وهاك بيانها:

النموذج الأول: رواسي الأرض بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}**[1] إذ يرى الطاهر أن في القرآن الكريم إشارات كثيرة على أن الجبال لها الدور الأكبر في تثبيت الأرض، مع أن العقل ربما يتخيل أن التثبيت يكون للثابت والأرض متحركة، ويكون للجسم المستوي، والأرض كروية.

انفراد متميز: في الوقت الذي اكتفى فيه المفسرون بذكر المعنى العام مختصرًا: أي: جعل في الأرض جبالاً ثابتة[2]، باستثناء الحافظ ابن كثير الذي زاد الأمر بعض الإيضاح فذكر أن المعنى: "جبالاً أرسى الأرض بها وقرَّرها وثقلها، لئلا تميد بالناس، أي: تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم عليها قرار، لأنها عامرة في الماء إلا مقدار الربع.. [3].

نجد أن الطاهر بن عاشور انفرد بتوسع المعنى علميًا بما يتوافق مع معطيات العصر الحديث وحقائقه بإثباته حقيقتين علميتين:

أولهما: الجبال متداخلة مع الأرض وليست موضوعة عليها:

فيقول: "وفائدة هذا الوصف زيادة التنبيه إلى بديع خلق الله، إذ جعل الجبال متداخلة مع الأرض، ولم تكن موضوعة عليها وضعًا كما توضع الخيمة، لأنها لو كانت كذلك لتزلزلت وسقطت وأهلكت ما حواليها..."[4].

(١) سورة النحل: الآية ١٥.

(٢) ينظر: تفسير الطبري، ٣٢٨/١٦، تفسير السمرقندي، ٢٩٨/٣، تفسير البغوي، ٣٧٤/٤، تفسير الزمخشري، ١٤٦/٦، تفسير أبي حيان، ٤٨٦/٨، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، ٣٢٥/٤، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، فتح القدير، ٨٥/٤، روح المعاني، ٤٦٩/٩، زاد المسير، ٤٨٢/٣.

(٣) تفسير ابن كثير، ٣٤٠/٥.

(٤) التحرير والتنوير، ٥٠/١٤.

ثانيهما: نتوء الجبال يتفق مع كروية الأرض بل معدلاً لها:

فيقول: ".. ولعل الله جعل نتوء الجبال على سطح الأرض معدلاً لكرويتها، بحيث لا تكون بحدٍّ من الملاسة يخفف حركتها في الفضاء تخفيفًا يوجب شدة اضطرابها"(١).

*** ضوابط التفسير العلمي عند الطاهر:**

أولها: اللغة: فاللغة تقرر أن الرواسي: الثوابت، رسا الشيء يرسو رُسُوًّا وأرسى: ثبت(٢)، وزاد الطاهر أن "رواسي": جمع راس، وهو وصف من الرسْو –بفتح الراء وسكون السين، ويقال بضم الراء والسين.. وهو الثبات والتمكن في المكان، ومنه قوله –تعالى–: **{وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ}**(٣).(٤) وحمل الرسو على التمكن في المكان يتفق مع الحقيقة العلمية الأولى.

وذكر في موضع آخر أن جعل الجبال رواسي يعني أنها ملصقة في ميدها، وذلك عند تفسير قوله –تعالى– في سورة الأنبياء: **{وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ}**(٥) إذ يقول: "أي: دَفْعَ أن تميد هي، أي الجبال بكم، أي: ملصقة بكم في ميدها"(٦) وهو ما يتفق مع تفسيره العلمي الآخر.

ثانيها: الاتفاق مع النظريات العلمية الحديثة:

ما ذكره الطاهر يتفق أيما اتفاق مع ما توصل إليه العلم الحديث، وحاصله نظريتان:

أولهما: انغراس الجبال في الأرض: فالأرض مثبتة بالجبال بواسطة قوة التثاقل بالضغط الرأسي، ولولا انغراس الجبال فيها لتحركت الجبال واضطربت الأرض(٧).

---

(١) السابق، ٣٤/٨.

(٢) ينظر: لسان العرب، ٣٢١/١٤، "رسا"، المفردات، ٥٥٣/١.

(٣) سورة سبأ: من الآية ١٣.

(٤) التحرير والتنوير، ٢٤/٨.

(٥) سورة الأنبياء: من الآية ٣١.

(٦) السابق، ٥٠/١٤.

(٧) كوكبنا النابض بالحياة، محد سعيد النعناعي، ص٦٠، دار النهضة، مصر.

ثانيهما: أن الأرض يدور معها القمر مرة كل شهر قمري، ولولا ثقل الجبال عليها لمادت وتحركت بسبب تحركاتها المختلفة(١).

ثالثها: اتساع دلالات اللفظة القرآنية: فاللفظة القرآنية تتسع في المعاني والمدلولات لما لا تتسع له الكلمات الأخرى، إذ أنها تختزن دلالات عديدة في لفظة واحدة ومعبرة عن كل المعاني التي يطلبها السياق القرآني، لذا فإن المفردات القرآنية تحتاج إلى مزيد تدبر كي يصل المفسر إلى كل الدلالات التي تتضمنها المفردة، وهو من سمات الإعجاز القرآني(٢).

ولعل هذه الدلالة هي أصل المنهج الذي بنى عليه الطاهر تفسيره العلمي للآيات القرآنية، فحمل لفظة "رواسي" على معنى ثوابت، يعطي معنى الثبات: التمكن في الشيء، ويوجب ثبات الأرض وعدم خفتها عند دورانها، فاتسعت اللفظة لكل هذه المعاني بحيث يعبر فيها عن كل معنى بلا خلل أو اضطراب، ويقوي هذا المعنى التعبير بالميد دون الميل.

لأن الميل: يكون في جانب واحد، والميد: هو أن يميل مرة يمنة ومرة يسرة، أي: تضطرب يمنة ويسرة(٣)، وهذا يقتضي تداخلها وثقلها لئلا تضطرب أو تميد.

أقول: مع ما سبق من دلالات في الآية اعتمد عليها الطاهر –رحمه الله– في تفسيره العلمي، يتبقى دلالة تحمل على التأمل وهي: التعبير بـ "ألقى – جعل".

فقد عبر القرآن الكريم عن الجبال كرواسي للأرض مرة بالفعل "ألقى" كالآية التي معنا، وأخرى بالفعل "جعل" ومنها قوله –تعالى–: **{وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ**

(١) المعارف الكونية بين العلم والدين، نخبة من علماء الفكر الإسلامي المعاصر، ص٣١٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.

(٢) ينظر: الحيوان، الجاحظ، ٩٤/١، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ، بديع القرآن، ابن أبي الأصبع، ص٨٢، الناشر: دار نهضة مصر، القاهرة، جماليات المفردة القرآنية، د. أحمد ياسوف، ص٢٦٩، الناشر: دار المكتبي، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

(٣) الفروق اللغوية، ٥٢٦/١.

أَن تَمِيدَ بِهِمْ}[١]، وقوله: **{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا}**[٢] أمَّا الجعل: فيقول الراغب: هو لفظ عام في الأفعال كلها، وهو أعم من "فعل" و "صنع" وسائر أخواتها، ويتصرف على خمسة أوجه، والمناسب لها: إيجاد شيء من شيء[٣].

وأما الإلقاء: فيشير إلى قوة الفعل، كما في قوله –تعالى–: **{سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا}**[٤]، **{أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}**[٥][٦].

وأرى –والله أعلم– أن التعبيرين يلفتان الانتباه إلى قدرة الله وعلمه، وما في المخلوقات من أسرار تستحق التأمل والاعتبار في كل العصور، وأن الإلقاء لحكمة، والإيجاد لمصلحة.

فاللفظتان تحملان على التأمل ومواكبة التفسيرات العلمية التي تحتملها هاتان اللفظتان في المخلوقات عامة، والجبال خاصة.

مع مراعاة أن ذكر "رواسي" دون الجبال: تعبير بالصفة عن الموصوف، للإشارة العلمية إلى أدق خصائص الجبال، مع قربها من خفة اللفظة، وتجنب الثقل، فلو جاءت الجبال مع الإلقاء أو الجعل لكان فيها من الثقل ما ينبو عنه الذوق.

فضلاً عن الفائدة العلمية التي يأخذ منها كل عصر ما يناسب معطياته كلما تأمل لفظة "رواسي" فسبحان الحكيم الخبير.

النموذج الثاني: محطات التنقية الإلهية للماء بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا}**[٧] إذ يرى الطاهر أن الجبال لها الدور الفعال في تصفية المياه لأنها تجري في أسافلها، وهذا هو سر العطف بين الشامخات والماء الفرات.

---

(١) سورة الأنبياء: من الآية ٣١.
(٢) سورة فصلت: من الآية ١٠.
(٣) المفردات، ٢٥٤/١.
(٤) سورة المزمل: من الآية ٥.
(٥) سورة ق: من الآية ٣٧.
(٦) السابق، ٢٥٤/١.
(٧) سورة المرسلات: الآية ٢٧.

فيقول: «وعطف "وأسقيناكم ماءً فراتًا" لمناسبة ذكر الجبال، لأنها تنحدر منها المياه تجري في أسافلها وهي الأودية وتقر في قرارات وحياض وبحيرات، والفُرات: العذب، وهو ماء المطر، وتنوين "شامخاتٍ" و "ماءً فُراتًا" للتعظيم، لدلالة ذلك على عظيم القدرة»[١].

ضوابط التفسير العلمي عند الطاهر:

في الوقت الذي اكتفى فيه المفسرون[٢] بأن الماء الفرات: العذب الذي يشرب منه، دون تعرض لسر العطف بين الماء الفرات والجبال الشامخات، إلا ما كان من الإمامين البقاعي والألوسي، فقد ذكر البقاعي: أن "كونه –الماء– من الجبال التي هي أصل الأرض ومن صخورها غالبًا، دلالة ظاهرة على أن الفعل للواحد المختار الجبار القهار لا للطبائع"[٣]، ورأي الألوسي من دلالة العطف أن الماء العذب في أصول الجبال، فيقول: ".. وذلك بأن خلقناه في أصولها، وأجريناه لكم منها في أنهار، وأنبعناه في منابع تستمد مما استودعناه فيها"[٤].

فاستدل البقاعي بها على عظيم القدرة، وأشار الألوسي إلى التفسير العلمي، وجمع الطاهر بين الأمرين بتفصيل معبر، وكلمات موجزة، أوفت بالمقصود من الجانبين.

ضوابط التفسير العلمي عند الطاهر:

أولها: اللغة: فالتعبير عن الجبال بالشامخات تحمل معاني الثبات مع الارتفاع والعظم.

قال الخليل: جبل شامخ: طويل في السماء، ويجمع على شوامخ[٥].

---

(١) التحرير والتنوير، ٥/١٦.

(٢) ينظر: تفسير الطبري، ١٣٥/٢٤، بحر العلوم، ٣٥٧/٤، تفسير البغوي، ٣٠٦/٨، تفسير الرازي، ٢٦٤/١٦، تفسير القرطبي، ١٩٢/١٩، تفسير النسفي، ٥٠٠/٣، تفسير الخازن، ٢٠٦/٦، البحر المحيط، ٤١٤/١٠، تفسير ابن كثير، ٢٩٩/٨، الدر المنثور، ١٧٥/١٠، فتح القدير، ٣٨٨/٧.

(٣) نظم الدرر، ٢٩٨/٩.

(٤) روح المعاني، ٥٩/٢٢.

(٥) العين، ١٧٤/٤، "شمخ".

وذكر ابن فارس أن الشين والميم والخاء أصل صحيح يدل على تعظيم وارتفاع، يقال: شامخ أي: عالٍ(١).

وفي اللسان: جبل شامخ: طويل في السماء.. شمخ الجبل: علا وارتفع(٢).

وكأن اختيار هذه اللفظة "شامخات" دون غيرها "مرتفعات– طويلات" لأنها تجمع بين الارتفاع مع العلو والثبات، وفي ثباتها ثبات لغيرها، حتى إذا اصطدمت الرياح بها تقوى عليها فتتحول الرياح إلى سحاب يتنزل مطرًا يجري في أسافلها، فقوله –تعالى–: {شامخات} خير دلالة على الثبات والارتفاع والتكبر، حتى قال البقاعي: "أي: هي مع كونها ثوابت في أنفسها، مثبتة لغيرها، طوال جدًا، عظيمة الارتفاع، كأنها قد تكبرت على بقية الأرض، وعلى من يريد صعودها"(٣).

ثانيها: الاتفاق مع الحقائق العلمية: إذ توصل العلماء إلى حقائق علمية حاصلها: أن الأنهار منابعها من الجبال العالية، وأن للجبال دورًا هامًّا في تنقية المياه، وأن أفضل طرق تنقية المياه وضعها تحت الأرض لعدة أشهر، وأن الجبال محطات تنقية إلهية لا يقدر على صنعها بشر، فإذا ما اصطدمت الرياح بالجبال فإن بخارها يتكاثف سحابًا، ويتكاثف سحابها مطرًا إلى أعلى تلك الجبال، فتنحدر في أسافل الجبال، ومن هنا كانت الأنهار منابعها من الجبال الشامخات(٤).

ثالثها: دلالة تلاحم المعاني بعطف الجُمَل:

أوقف علماء البلاغة عطف الجمل على تلاحم المعاني بينها، فكلما اشتد التعلق كان وصل الكلام أشد لزومًا، وأكثر اتساعًا، وكلما قل التعلق كان قطع الكلام أقرب، فهم ينظرون إلى القضية من خلال العلاقات بين المعاني وهو ما يسمى

(١) مقاييس اللغة، ٢١٢/٣، "شمخ".

(٢) لسان العرب، ٣٠/٣، "شمخ".

(٣) نظم الدرر، ٢٩١/٩.

(٤) ينظر: من إشارات العلوم في القرآن، عبدالعزيز سيد الأهل، ص٨٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧م، الإسلام في عصر العلم، د. محمد أحمد الغمراوي، ص٣٠٤، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٧٣، الكون والإعجاز العلمي للقرآن، د. منصور محمد حسب النبي، ص١٩٣، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩١م، العلم الحديث حجة للإنسان أم عليه، د. عبدالله عبدالرحيم العبادي، ٤٩/٢، دار الثقافة، ١٩٨٥م.

عندهم بالفصل والوصل[١]، فالأصل في الوصل أن تتفق الجمل خبرًا أو إنشاءً، ويكون بينهما جهة جامعة، أي: مناسبة تامة، ولم يكن مانع من العطف[٢].

ولخطورة هذا العلم وصفه السكاكي (ت ٦٢٦هـ) بقوله: ".. محك البلاغة، ومنتقد البصيرة، ومضمار النضار[٣]، ومتفاضل الأنظار، ومعيار قدر الفهم، ومسبار غور الخاطر[٤]، ومنجم صوابه وخطأه"[٥].

وأهميته للمفسر أخطر: إذ به تستنبط المعاني الدقيقة القائمة على العطف "الوصل" بالنظر إلى التلاءم بين الجملتين وما بينهما من صلة ليستنبط من الصلة بينهما ما لم يصل إليه غيره، وفي ذلك يقول **عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ):**

«وإذا وقع الفعلان في مثل هذا في الصلة ازداد الاشتباك والاقتران حتى لا يتصور تقدير إفراد في إحداهما عن الآخر»[٦].

وقد أفاد الطاهر بدلالة العطف على التناسق التام بين الجملتين، وقوة المناسبة بينهما، وأن الثانية نتيجة للأولى، لما بينهما من ترابط واجتماع في الحكم، وتلاءم وقران في المناسبة، وأقام تفسيره العلمي على دلالة العطف بين الجملتين، الجبال الشامخات والماء الفرات، وهو استدلال له قوته ووجاهته، وينبئ عن ملكات خاصة للإمام.

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ٧-٨، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة. أما الفصل: فهو ترك الواو العاطفة بين الجملتين "ينظر: الطراز المتضمن أسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، ٣٤/٣، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ٢٤٣/١، بتصرف، الناشر: مكتبة الخانجي.

(٣) المضمار: الموضع، "العين"، ٤١/١٧، والنضار: الخالص من كل شيء، "الصحاح"، ٢١٤/٢، "نضر".

(٤) السَّبْرُ: امتحان غَوْر الجُرْح وغيره. "القاموس المحيط"، الفيروزابادي، ٤٢٠/١. والخاطر: مرور معنى بالقلب. "الفروق اللغوية، ٢٠٩/١".

(٥) مفتاح العلوم، السكاكي، ص٢٤٩، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

(٦) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، ص١٧٥.

النموذج الثالث: أوتاد الجبال بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله تعالى: **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا}**[١] إذ يرى الطاهر أن التعبير بالأوتاد على طريقة التشبيه البليغ أي هي كالأوتاد في رسوخ أسسها في الأرض، فهي منغرسة فيها، كوتد الخيمة التي تشد به فتثبتها، فيقول: "والأوتاد: جمع وتد..، والوتد: عود غليظ شيئًا، أسفله أدق من أعلاه يدق في الأرض لتُشدَّ به أَطْنَاب الخيمة، وللخيمة أوتاد كثيرة على قدر اتساع دائرتها، والإخبار عن الجبال بأنها أوتاد على طريقة التشبيه البليغ، أي: كالأوتاد"[٢].

وقال في قوله –تعالى–: **{وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}**[٣]: وسميت الأبنية أوتادًا لرسوخ أسسها في الأرض[٤].

ضوابط التفسير العلمي عند الطاهر:

أولها: اللغة: فالوتد لغة –بكسر الواو وفتحها–: ما رُزَّ في الحائط أو في الأرض من الخشب، والجمع أوتاد[٥]، وأوتاد الأرض: جبالها[٦].

فالأوتاد يحقق بها الموازنة للكرة الأرضية لئلا تميد "كما يثبت البيت بالأوتاد"[٧].

ثانيها: دلالة التشبيه البليغ: استدل الطاهر بتشبيه الجبال بالأوتاد على طريقة التشبيه البليغ الذي تحذف منه الأداة على حمل العقول على التأمل ورفع المجهول عن هذه الآيات في الأرض، وما فيها من تفسير علمي يحمل على العبرة، فالتشبيه البليغ يجعل المشبه عين المشبه به توكيدًا للشبه بينهما. والعجب في هذا التشبيه أنه تشبيه للأعلى بالأدنى، وللفخم الرائع بالضئيل الممتهن، ليدلك على أن

(١) سورة النبأ: الآيتان ٦–٧.
(٢) التحرير والتنوير، ٣٠/١٦.
(٣) سورة الفجر: الآية ١٠.
(٤) السابق، ٢٠٠/١٢.
(٥) لسان العرب، ٤٤/٣ "وتد".
(٦) القاموس المحيط، ٣٤٣/١، "وتد".
(٧) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ٥٠٧/١٣، الناشر: دار الصابوني، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

في الجبال من آيات الله في خلقها ما يجب أن يحمل على البحث والاعتبار[١]، فكأن هذا التشبيه مفتاح لرفع المجهول عن أمر الجبال في تشبيهها بالوتد وكشف ما يتعلق بها من علوم ومعارف.

ثالثها: الاتفاق مع الحقائق العلمية: فقد أكدت الدراسات أن الجبال لها جذور منغرسة في الأرض تشبه أوتاد الخيمة، ولولاها لطفت القشرة الأرضية الصلبة إلى الخارج وانعدم التوازن، ولولا انغراس الجبال في الأرض لتحركت الجبال من أماكنها نظرًا لضآلة كثافتها، واضطربت الأرض وحادت، وأكد الجغرافيون أن الجبال تشبه الوتد فهي تمتد عمقًا في الأرض ويظهر منها بعضها[٢].

وقد وصف الله –سبحانه– كل ما توصل إليه العلماء بكلمة واحدة جامعة "أوتادًا"، وهي حقائق أثبتها القرآن الكريم ولم يتوصل إليها العلماء إلا في أوقات معاصرة، وما كان لأحد أن يعلم بها وقت نزول القرآن الكريم.

وإذا كان المفسرون قد اكتفوا بأن الجبال أوتاد للأرض لتسكن ولا تتحرك[٣]، فإن الإمامين الرازي والطاهر بن عاشور قد أشارا إلى هذه الحقيقة العلمية في تفسيرهما بإيجاز، فقد قال الرازي: "وإرساء الجبال وإثباتها أوتادًا لها حتى تستقر ويستقر عليها"[٤]، وهي مع إيجازها تجمع كل ما قيل فيها من حقائق ونظريات علمية، وزاد الطاهر الأمر إيضاحًا بتعريف الأوتاد وفائدة التشبيه البليغ فيه[٥].

(١) الإسلام في عصر العلم، د. محمد أحمد الغمراوي، ص٢٨٦، بتصرف.

(٢) ينظر: المعارف الكونية بين العلم والدين، نخبة من علماء الفكر، ص٣١٢، المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، ص١٠، مكتبة الشروق الدولية، الإعجاز العلمي في القرآن، محمد السيد أرناؤوط، ص١٨٩.

(٣) ينظر: تفسير الطبري، ٤٣٥/١٨، بحر العلوم، ٣٦١/٤، تفسير البغوي، ٣٨٢/٨، تفسير القرطبي، ١٧١/١٩، البحر المحيط، ٤١٩/١٠، تفسير ابن كثير، ٣٠٢/٨، فتح القدير، ٢١١/٤، روح المعاني، ٨٦/٢٢.

(٤) تفسير الرازي، ٣٤٣/١٦.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، ٣٠/١٦.

رابعها: إعجاز المفردة القرآنية في تناسبها مع المخاطبين:

ذكر الدكتور بكري شيخ أمين (ت ١٤٤٠هـ): ثلاث خصائص للكلمة القرآنية هي:

١- جمال وقعها في السمع. ٢- اتساقها الكامل مع المعنى.

٣- اتساع دلالتها لما لا تتسع عادة دلالات الكلمات الأخرى(١).

فالمفردة القرآنية تلتقي مع الفرد والأفراد لما لها من خصائص بيانية تميزها عن غيرها، فالمفردة القرآنية كائن حي لا يعرف الشيخوخة ولا الهرم ولا البلى(٢)، تتشكل بطرق شتى، وتلبس معاني جديدة، ولها دلالات خاصة، وإذ بهذه الدلالات تؤدي مهمتها في كل العصور والأزمان، ومع كل المخاطبين فتمنح كل مخاطب حظه ونصيبه.

وإذا طبقت هذه الدلالات المتنوعة على لفظة أوتاد في الآية الكريمة –مدار البحث– ترى أن **العامي:** يرى الجبال كالأوتاد المغروزة في الأرض كما هو ظاهر أمام عينه.

والشاعر: يرى الأرض سهلاً منبسطًا، وقبة السماء عبارة عن خيمة عظيمة ضربت على الأرض، وأن الجبال كأنها أوتاد تلك الخيمة العظيمة.

والبدوي: يتصور سطح الأرض كالصحراء الواسعة، والجبال خيمتها.

والجغرافي: يرى الجبال أوتادًا دقت عليها للتثبيت والموازنة(٣).

فتنوعت المعاني وتعددت بما يناسب كل مخاطب وثقافته، فترى المفردة القرآنية واحدةً ولكنها تروح وتجيء، تأخذ أشكالاً وتعطي معاني ودلالات تناسب كل الثقافات، وتتوافق مع كل العصور، وتتناسب مع كل المخاطبين.

---

(١) التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، ص١٨٣، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة.

(٢) ينظر: الإعجاز البياني في القرآن الكريم، عمار ساسي، ص٣٤، الناشر: دار المعارف، ٢٠٠٣م.

(٣) ينظر: المعجزة القرآنية، بديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالح، ص٥٩، دار الرشيد، بغداد، ١٩٩٠، إعجاز القرآن اللغوي في فكر النورسي، د. عبدالرازق عبدالرحمن السعدي، ص١٩، دار الأنبار، بغداد، ١٩٩٥م.

النموذج الرابع: تغلغل صخور الجبال في الأرض بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا}**[1]، إذ يرى الطاهر أن للجبال صخورًا تتغلغل في الأرض، وهذه الصخور سائحة في باطن الأرض، ولولا ذلك لزعزعتها الرياح، فيقول: "وإثبات الجبال: هو رسوخها بتغلْغُل صخورها، وعروق أشجارها، لأنها خلقت ذات صخور سائخة إلى باطن الأرض، ولولا ذلك لزعزعتها الرياح، وخلقت تتخللها الصخور والأشجار ولولا ذلك لتهيلت أتربتها، وزادها في ذلك أنها جعلت أحجامًا متناسبة بأن خلقت متسعة القواعد ثم تتصاعد متضايقة"[2].

ويرى أن وصف الجبال بالرسو حقيقة كما في "الأساس"[3]، فإرساء الجبال: إثباتها في الأرض، يقال: رست السفينة إذا شدت إلى الشاطئ[4].

فحاصل التفسير العلمي للطاهر أن للجبال جذورًا في الأرض لولاها لمادت الأرض، ولولا رسوخها بهذا الشكل لتهيلت أتربتها.

ضوابط التفسير العلمي:

أولها: اللغة: فكما أن اللغة تقر أن رسا الشيء يرسو إذا ثبت، يقال: رسا الجبل: إذا ثبت أصله في الأرض[5].

كذلك تحمل على القرار وعدم الحركة، ومنه رست السفينة: انتهت إلى قرار الماء فبقيت لا تسير[6]، وتثبيت الجبال للأرض بتغلغل صخورها فيها هو عين الثبات، فاللغة تتحمله ولا تعارضه.

ثانيها: الاتفاق مع الحقائق العلمية: فلقد أوضحت الدراسات حديثًا أن للجبال جذورًا صلبة مغمورة في منصهر تحت القشرة، لذا فالجبال ترسو تمامًا كما ترسو السفينة، كما أثبتت أن لكل جبل جذرًا غائرًا في الأرض يتسبب في إرساء ألواح

(١) سورة النازعات: الآية ٣٢.
(٢) التحرير والتنوير، ٨٣/١٦.
(٣) أساس البلاغة، الزمخشري، ص٢٣٢.
(٤) التحرير والتنوير، ٨٣/١٦.
(٥) لسان العرب، ٣٢١/١٤، "رسا".
(٦) العين، ٢٩٠/٧.

الغلاف الصخري للأرض، والحدّ من اضطراب الأرض ككوكب في دورانها حول نفسها، وهذه الجذور الغائرة للجبال تثبت ألواح الغلاف الصخري للأرض، وتثبت الأرض ككوكب، ويجعل حركتها أكثر انتظامًا وسلاسة(١).

وهي حقائق لم تكن معروفة، وما كان لأحد أن يتعرف عليها قبل نزول القرآن الكريم.

ثالثها: دقة اختيار اللفظة: إن التعبير بقوله: "أرساها" بما تختزن من معانٍ تدل على بلاغة اللفظة وموافقتها للتطور العلمي، فالإرساء: لغة: الثبات، وهذا الثبات من مقتضياته أن يكون لكل جبل جذر غائر في الأرض، بأن تكون صخور الجبال سائخة إلى باطن الأرض –كما قرر الطاهر.

انفراد متميز: في الوقت الذي توقف فيه المفسرون(٢) مع المعنى اللغوي ففسروا الإرساء بالثبات، وأنه "لا يكاد يستعمل الإرساء إلا في الشيء الثقيل ومنه الجبال، ومنه مرساة السفن"(٣) انفرد الطاهر بإيضاح ماهية هذا الإرساء بما يتوافق مع الحقائق والنظريات العلمية الحديثة التي ما كان لأحد أن يتعرف عليها إلا بعدما أحدثته التقنيات الحديثة، والتطور الهائل في العلوم، فإذا بالقرآن الكريم نبأ عنه وأخبر، وحفز الهمم في بذل الجهد والوقت لاستخدام علوم ومعارف جُلُّها في كتاب الله –تعالى– المنزل على خير البرية –ﷺ–.

❁ ❁ ❁

(١) ينظر: المعارف الكونية بين العلم والقرآن، د. منصور محمد حسب النبي، ص٤٤٩، من آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، ص٢٢٨، الناشر: دار المعرفة.

(٢) ينظر: تفسير الطبري، ١١/٢٤، تفسير البغوي، ٣٧٤/٤، تفسير الرازي، ٣٢٤/٧، تفسير القرطبي، ٣٣٥/٧، تفسير الخازن، ٢٢٨/٦، البحر المحيط، ٦٩/١، تفسير ابن كثير، ٥٦٣/٤، نظم الدرر، ٢٦٧/٤، فتح القدير، ١٣١/٣، روح المعاني، ٤٦٧/٦، زاد المسير، ١٢٠/٦.

(٣) روح المعاني، ٤٦٧/٦.

المطلب الرابع
التفسير العلمي لآيات متنوعة

لا أبالغ إذا قلت إن للطاهر بن عاشور –رحمه الله– بين طيَّات تفسيره أقوالاً وتحقيقات وتفسيرات علمية تستحق أن تفرد بمؤلفات مستقلة، ولعل هذا من أهم نتائج هذا البحث المتواضع، ونظرًا لطبيعة البحث التي تقتضي الإيجاز، وأهمية الموضوع التي تقتضي التفصيل، فسأحاول في هذا المطلب أن أجمع أهم أقوال الإمام وتفسيراته العلمية في موضع واحد، بوضوح في الفكرة، ووصول للهدف، وتكوين منهج متكامل، مقسمًا هذا المطلب إلى مسائل:

أولها: من التفسير العلمي لآيات خلق الإنسان:

النموذج الأول: مادة خلق الإنسان بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ}**[1]، إذ يرى الطاهر –رحمه الله– أن السلالة هي النطفة المسلولة من الدم، وأنها مخلوقة من الأغذية، والأغذية من التراب، فالإنسان بذلك مخلوق من سلالة من طين، وقد عَبَّر عن هذه الحقيقة العلمية باستطراد قائلاً: "سلالة... أي: خلقناه منفصلاً وآتيًا من سلالة، فتكون السلالة على هذا مجموع ماء الذكر والأنثى المسلول من دمهما، وهذه السلالة هي ما يفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يصير دمًا، فدم الذكر حين يمر على غدتي التناسل "الأنثيين" تفرز منه الأنثيان مادة دُهنية شحمية تحتفظ بها، وهي التي تتحول إلى مني حين حركة الجماع، فتلك السلالة مخرجة من الطين لأنها من الأغذية التي أصلها الأرض، ودم المرأة إذا مَرَّ على قناة في الرحم ترك فيها بويضات دقيقة هي بَذر الأجنة، ومن اجتماع تلك المادة الدهنية التي في الأنثيين مع البويضة من البويضات التي في قناة الرحم يتكون الجنين، فلا جرم هو مخلوق من سلالة من طين، .. وسميت سلالة الذكر نطفة لأنها تنطُف، أي: تقطر في الرحم

(١) سورة المؤمنون: من الآية ١٢.

في قناة معروفة، وهو القرار المكين"[١].

وقال في تفسير قوله –تعالى–: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ}[٢] ".. والناس والناس يعلمون أن النطف أصل الخلقة، وهم إذا تأملوا علموا أن النطفة تتكون من الغذاء، وأن الغذاء يتكون من نبات الأرض، وأن نبات الأرض مشتمل على الأجزاء الترابية التي أنبتته، فعلموا أنهم مخلوقون من تراب، فبذلك استقام جعل التكوين من التراب آية للناس، أي: علامة على عظيم القدرة، مع كونه أمرًا خفيًا"[٣].

*** ضوابط التفسير العلمي:**

اللغة: فسلالة الشيء: ما استل منه، .. قال الفراء: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" : الذي سلَّ من كل تربة[٤].

فالتعبير بالسلالة لغة للدلالة على الشيء المنتزع من آخر، حتى قال الطاهر: "السلالة: الشيء المسلول، أي: المنتزع من شيء آخر، يقال: سللت السيف إذا أخرجته من غِمده، فالسلالة: خلاصة من شيء"[٥] وهو ما يتفق مع التفسير العلمي.

الاتفاق مع الحقائق العلمية: فلقد أثبتت الدراسات أن النطفة من مني الإنسان تتولد من الدم[٦]، والدم نتاج الغذاء النباتي وغيره المُكوَّن بمحتوياته من عناصر التراب، وأن الإنسان عندما يموت –وكذلك الحيوان والنبات– تبلى أجسامهم وتتحلل إلى عناصرها الأولى وتعود إلى الأرض[٧].

وأن الإنسان يتكون بماءه –النطفة– من عناصر التراب لا التراب كله[٨]، وهو التعبير الدقيق "سلالة" كما عبر القرآن المعجز.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٣٩/٩.

(٢) سورة الروم: من الآية ٢٠.

(٣) السابق، ٥٦/١١.

(٤) لسان العرب، ٣٣٨/١١، مادة " سلل".

(٥) التحرير والتنوير، ٣٣٩/٩.

(٦) القرآن إعجازه يتعاظم، شاكر عبدالجبار، ص١٤٢، مطبعة الحوادث، بغداد، ١٩٨٥م.

(٧) القرآن يفك لغز الأرض، شاكر عبدالجبار، ص٩٦، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٨٥م.

(٨) التفسير العلمي في القرآن الكريم، محد سيد أرناؤوط، ص٣٠٦، بتصرف.

حمل المعنى على العموم أولى: يرى البعض أن الإنسان يراد به "آدم" فاستطرد من الشخص إلى النوع، فالأول: آدم، والثاني: -"ثم جعلناه"- بنوه[١].

وأجاز الطاهر أن يراد بالإنسان آدم، أو النوع الإنساني، فقال: والمراد بالإنسان: يجوز أن يكون النوع الإنساني، وفسَّر به ابن عباس ومجاهد[٢]، فالتعريف للجنس، وضمير "جعلناه" عائد إلى الإنسان.

ويجوز أن يكون المراد به آدم، وقال بذلك قتادة[٣]، فتكون السلالة: الطينة الخاصة التي كوَّن الله منها آدم، وهي الصلصال الذي ميزه من الطين في مبدأ الخليقة، فتلك الطينة مسلولة سلاًّ خاصًّا من الطين ليتكون منها[٤].

ورجح الرازي حمله على العموم: النوع الإنساني -وذلك "لمطابقته اللفظ، ولأنه لا يحتاج إلى تكلفات"[٥] مع ما فيه من موافقة للحقائق العلمية، وتكثير للمعاني، فيحمل الإنسان في سورة "المؤمنون" على النوع الإنساني، ويحمل في سورة "السجدة" على آدم -عليه السلام- في قوله -تعالى-: **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ}**[٦] لقرينة قوله -تعالى- "وبدأ" فتكون كل آية استقلت بحقائق علمية في خلق الله للإنسان، تجمع بين بديع الخلق، وفضل السبق.

النموذج الثاني: العلقة بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله -تعالى-: **{ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً}**[٧] إذ يستند الطاهر في تفسير العلمي لعلم التشريح الذي يقرر الدقة في تسمية العلقة بهذا الاسم وذلك لتعلقها في الرحم وامتصاصها قوة دم الأم، فيقول: "**{ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً}** للترتيب

(١) ينظر: الإتقان، ٥٤٩/١.
(٢) أورده الطبري في تفسيره، ١٤/١٩.
(٣) أورده الطبري في تفسيره، ١٤/١٩.
(٤) التحرير والتنوير، ٣٣٩/٩.
(٥) تفسير الرازي، ١٦٩/١١.
(٦) سورة السجدة: الآيتان ٧-٨.
(٧) سورة المؤمنون: من الآية ١٢.

الرتْبي[١] إذ كان خلق النطفة علقة أعجب من خلق النطفة، إذ قد صُيِّرَ الماء السائل دمًا جامدًا فتغير بالكثافة وتبدل اللون من عوامل أودعها الله في الرحم. ومن إعجاز القرآن العلمي تسمية هذا الكائن باسم العلقة، فإنه وضع بديع لهذا الاسم، إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة هو كائن له قوة امتصاص القوة من دم الأم بسبب التصاقه بعروق في الرحم تدفع إليه قوة الدم، والعلقة: قطعة من دم عاقد"[٢].

ضوابط التفسير العلمي:

اللغة: المعاجم اللغوية على أن العَلَق: الدم الجامد قبل أن ييبس[٣].

والعَلَق: كل ما عُلِّق، وقيل: الدم الجامد الغليظ[٤].

والعلق: التشبث بالشيء[٥].

والعلق: دويبة حمراء تكون في الماء[٦].

وقد استدل الطاهر بالمعاني اللغوية على صحة استدلاله العلمي، فيقول: والعَلَق: اسم جمع عَلَقَة وهي قطعة قدر الأنملة من الدم الغليظ الجامد الباقي رطبًا لم يجف، سمي بذلك تشبيهًا لها بدودة صغيرة تسمى علقة، وهي حمراء داكنة تكون في المياه الحلوة تمتص الدم من الحيوان إذا علق خرطومها بجلده، وقد تدخل إلى فم الدابة وخاصة الخيل والبغال فتعلق بلهاته[٧] ولا يتفطن لها[٨]. وهو استدلال يظهر مدى التوافق والانسجام بين المعاني اللغوية والتفسير العلمي، وأن التفسير العلمي قائم في أصله على اللغة.

---

(١) يقصد ابن عاشور به ترتيب الإخبار.

(٢) التحرير والتنوير، ٣٤٠/٩.

(٣) العين، ١٦١/١، مادة "علق".

(٤) لسان العرب، ٢٦٣/١٠، مادة "علق".

(٥) المفردات، ١٠٠٤/١.

(٦) العين، ١٦١/١، مادة "علق".

(٧) اللَّهاةُ: اللَّحْمَةُ المشرفة على الحلق. "القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ٤٧٣/٣".

(٨) التحرير والتنوير، ٣٣٦/١٦.

الاتفاق مع الحقائق العلمية: فقد أثبتت الحقائق والأبحاث العلمية أن النطفة بعد تحولها إلى علقة، تتعلق بجدار الرحم عن طريق حبل السرة، وتنشأ بداخله الأوعية الدموية على شكل شبكة جزر مغلقة معطية إياه مظهر علقة الدم المتجمد(١).

انفراد متميز: في الوقت الذي اكتفى فيه المفسرون بأن العلقة قطعة من الدم، وأن الدم الجامد علقة فإذا جرى فهو المسفوح، إذ بالطاهر ينفرد ويتميز في تفسيره بأمرين:

أولهما: التفيسر العلمي المفصل القائم على اللغة وموافقة الحقائق العلمية.

ثانيهما: إشارته إلى أن التعبير بالعلقة في أطوار الخلق دون غيرها في بعض الآيات(٢)، على اعتبار أنها أصل الخلق للإنسان، أي: "إشارة إلى ما ينطوي في أصل خلق الإنسان من بديع الأطوار والصفات التي جعلته سلطان هذا العالم الأرضي"(٣).

يريد أن النطفة إذا كانت هي المرحلة الأولى من أطوار الخلق، فإن العلقة أول مراحل التكوين الحقيقي، ولهذا لا تعارض بين قوله –تعالى–: **{خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ}**(٤) وقوله –تعالى–: **{خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ}**(٥) بل التكامل وقمة التوافق.

النموذج الثالث: أطوار تشكل المضغة بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ}**(٦) إذ يفسر الطاهر أطوار تشكل المضغة بتفصيل مذ أن كانت نطفة، وكيف تصل إلى مرحلة التخلق بعد أن كانت غير مخلقة في بداية أمرها، **فيقول:** ".. فإذا نزل فيه –الرحم– ماء

(١) ينظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، هيئة الإعجاز العلمي، ص٥٨–٦٣، الناشر: مطابع العالم الإسلامي، إعجاز القرآن في خلق الإنسان، د. محمد كمال عبدالعزيز، ص٢٩–٤١، مكتبة ابن سينا.

(٢) كقوله –تعالى–: **{خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ}** [سورة العلق: الآية ٢].

(٣) التحرير والتنوير، ٣١٦/١٦.

(٤) سورة النحل: من الآية ٤.

(٥) سورة العلق: الآية ٢.

(٦) سورة الحج: من الآية ١.

الرجل وهو النطفة بعد انتهاء سيلان دم الحيض لُقِحت فيه البيضة، واختلطت أجزاؤها بأجزاء النطفة المشتملة على جرثومات ذات حياة، وتمكث مع البيضة متحركة مقدار سبعة أيام، تكون البيضة في أثنائها تتطور بالشكل بشِبه تقسيم من أثر ضغط طبيعي، وفي نهاية تلك المدة تصل البيضة إلى الرحم، وهناك تأخذ في التشكيل، وبعد أربعين يوماً تصير البيضة عَلَقة في حجم نملة كبيرة طولها من ١٢ إلى ١٤ مليمتر، ثم يزداد تشكلها فتصير قطعة صغيرة من لَحم هي المسماة "مُضغة" طولها ثلاثة سنتيمتر تلوح فيها تشكلات الوجه والأنف خَفيَّة جداً كالخطوط، ثم يزداد التشكل يومًا فيومًا إلى أن يستكمل الجنين مدته فيندفعَ للخروج وهو الولادة..."[١].

ثم أشار إلى أن المضغة تكون غير مشكلة في بدايتها فلا يظهر فيها شكل الخلق ثم تتشكل فتكون مخلقة[٢].

ضوابط التفسير العلمي:

اللغة: تقرر المعاجم اللغوية أن المضغة: كل ما يمضغ[٣]، والمضغة قطعة اللحم[٤]، وأنها اللقمة الممضوغة[٥]، وأن العلقة إذا صارت علقة خلق منها الإنسان لحمة فهي مضغة[٦]، وأن المضغة جعلت اسمًا للحالة التي ينتهي إليها الجنين بعد العلقة، والماضغان: الشدقان لمضغهما الطعام[٧]. وهو عين ما قرره الطاهر في تفسيره العلمي لها.

الاتفاق مع الحقائق العلمية: فقد أكدت الحقائق العلمية أن تطور المضغة يمر بمرحلتين: الأولى: حيث لم يتشكل أي عضو أو أي جهاز. الثانية: يتم فيها

(١) التحرير والتنوير، ٩/٢٣٤.
(٢) السابق، ٩/٢٣٤، بتصرف.
(٣) لسان العرب، ٨/٤٥٠، "مضغ".
(٤) العين، ٤/٣٣٠، "مضغ".
(٥) معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي – حامد صادق، ١/٤٣٥، الناشر: دار النفائس، ١٩٨٨م.
(٦) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، ٣/٤٩، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
(٧) التعاريف، محمد عبدالرؤوف المناوي، ١/٦٦١، الناشر: دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

تمييز الأجهزة المختلفة. وأن مرحلة المضغة تبدأ من الأسبوع الثالث، وتكون هذه المرحلة غير مميزة حتى نهاية الأسبوع الرابع، وفي بداية الأسبوع الخامس يبدأ التمايز بظهور الأعضاء وهي المضغة المخلقة(١).

كما أكدوا أن سبب التسمية بالمضغة أن العلقة تغير شكل الجنين كانتفاخات غير منتظمة، لا توصف في شكلها الخارجي إلا بكلمة المضغة التي تعني اللقمة الممضوغة بالأسنان(٢)، وأن التحول من العلقة إلى المضغة سريع جدًا(٣)، فجمع القرآن بألفاظه بين دقة الوصف، وجلال السبق.

ردٌّ من فسر "غير مخلقة" بالسقط: دلائل وقرائن: قطع الطاهر –رحمه الله– أن المضغة من أطوار الخلق وأنها تكون في أول أمرها غير مخلقة: أي غير مشكلة ثم تتشكل.

فيقول: ".. **{مخلقة وغير مخلقة}**.. أشار إلى أطوار تشكل تلك المضغة، فإنها في أول أمرها تكون غير مخلقة، أي: غير ظاهر فيها شكل الخِلقة، ثم تكون خلقة، والمراد: تشكيل الوجه ثم الأطراف"(٤).

استدراك الطاهر على بعض المفسرين: استدرك الطاهر على من فسَّر "غير مخلقة" بأنه يراد به السقط.

وبيان ذلك: أن العلامة الطبري(٥) والحافظ ابن كثير(٦) قد رجحا: أن المراد بقوله –تعالى–: **{غير مخلقة}** السقط، وأن المخلقة هي المكتملة، اعتمادًا على رواية ابن عباس –رضي الله عنهما–(٧). فاستدرك الطاهر عليهما بأنه تفسير لا يستقيم؛

(١) إعجاز القرآن في خلق الإنسان، د. محمد كمال عبدالعزيز، ص٥٨-٥٩.
(٢) مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة، د. ناطق محمد جواد النعيمي، ص٤٣، إصدار جامعة الموصل.
(٣) علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، المجلس الأعلى للمساجد، مكة المكرمة، ص٦٤-٦٥.
(٤) التحرير والتنوير، ٢٣٤/٩.
(٥) تفسير الطبري، ١١٦/١٧.
(٦) تفسير ابن كثير، ٣٩٥/٥.
(٧) وقد أخرج رواية ابن عباس –رضي الله عنهما– الحاكم في المستدرك على الصحيحين [كتاب: التفسير، تفسير سورة الحج، ١٠١/٨، برقم ٣٤٠٩] وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٩٩٠م.

لأن المضغة من مبادئ الخلق فلا علاقة للسقط بالأمر، وأن التخليق فيه دلالة على تكرير الفعل أي شكلاً بعد شكل.

فيقول: ".. ولذلك لم يُذكر مثل هذين الوصفين –مخلقة وغير مخلقة– عند ذكر النطفة والعلقة، إذ ليس لهما مثل هذين الوصفين بخلاف المضغة، وإذْ قد جعل المضغة من مبادىء الخلق تعيّن أن كلا الوصفين لازِمان للمضغة، **فلا يستقيم** تفسير من فسّر غير المخلقة بأنها التي لم يكتمل خلقها فسقطت.

والتخليق: صيغة تدل على تكرير الفعل، أي خلقاً بعد خلق، أي شكلاً بعد شكل"(١).

ثم ذكر أن من استدل بتقديم "غير مخلقة" على "مخلقة" بأن الأولى يراد بها السقط، استدلال مردود، لأن تقديم "مخلقة" أكمل في الاستدلال ببيان أنها خُلقت بعد أن كانت عدمًا لم تخلق، فيقول: "وقُدم ذكر المخلقة على ذكر غير المخلقة على خلاف الترتيب في الوجود؛ لأن المخلقة: أدخل في الاستدلال، وذكر بعده غير المخلقة إكمال للدليل، وتنبيه على أن تخلقها نشأ من عدم، فكلا الحالين دليل على القدرة على الإنشاء وهو المقصود من الكلام"(٢).

اتفاق المفسرين مع استدراك الطاهر:

وكان من أبرزهم الإمام الرازي حيث قال: يجب أن تُحمل "مخلقة وغير مخلقة" على مَنْ سيصير إنسانًا، وذلك يبعد في السقط، لأنه قد يصير سقطًا ولم يتكامل فيه الخلقة، ولقوله –تعالى– في أول الآية **{فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم}**(٣)(٤) وفي هذا النص دلالة على أن التخليق يبدأ في هذا الطور، وهو ما أكدته حقائق علم الأجنة في أن التخليق يبدأ من أول الأسبوع الرابع.

وذكر الإمام الألوسي أن المراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٤/٩.
(٢) السابق، ٢٣٤/٩.
(٣) سورة الحج: من الآية ١.
(٤) تفسير الرازي، ٩١/١١، بتصرف.

يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت بعد ذلك شيئًا فشيئًا[١].

وذكر الإمام الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) أن ما رجحه الإمام الجليل الطبري –رحمه الله–: لا يظهر صوابه، وفي نفس الآية الكريمة قرينة تدل على ذلك، وهي قوله –تعالى–: **{فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ}** لأنه على القول المذكور الذي اختاره الطبري يصير المعنى: ثم خلقناكم من مضغة مخلقة وخلقناكم من مضغة غير مخلقة، وخطاب الناس بأن الله خلق بعضهم من مضغة غير مصورة فيه من التناقض كما ترى فافهم.

فإن قيل: في نفس الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بغير المخلقة: السقط، لأن قوله: **{وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى}**[٢] يفهم منه أن هناك قسمًا آخر لا يقره الله في الأرحام إلى ذلك الأجل المسمى وهو السقط.

فالجواب: أنه لا يتعين فهم السقط من الآية، لأن الله يقر في الأرحام ما يشاء أن يقره إلى أجل مسمى، فقد يقره ستة أشهر وقد يقره تسعة، وقد يقره أكثر من ذلك كيف يشاء... فظاهر القرآن يقتضي أن كلاً من المخلقة وغير المخلقة يتخلق منه بعض المخاطبين في قوله –تعالى–: **{يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ}**[٣] الآية، وبذلك تعلم أن أولى الأقوال في الآية هو القول الذي لا تناقض فيه، وهو القول الذي قدمنا عن قتادة والضحاك[٤]، وقد اقتصر عليه الزمخشري في الكشاف ولم يحك غيره[٥]، وهو أن المخلقة: التامة، وغير المخلقة: غير التامة[٦].

(١) روح المعاني، ١٠/١٧٣.
(٢) سورة الحج: من الآية ١.
(٣) سورة الحج: من الآية ١.
(٤) تفسير الطبري، ١٨/٥٩٨.
(٥) الكشاف، ٤/٢٧٤.
(٦) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، ٤/٣٣٤، الناشر: مجمع الفقه الإسلامي، جدة.

رأي الباحث في استدراك الطاهر:

أرى –والله أعلم– أنه استدراك موفق يقوم على دلالات وقرائن تجعله الأوفق بالمعنى والأنسب بالمقام، إضافة إلى ما ذكره أئمتنا الأعلام من هذه القرائن أزيد عليها:

- أن الجو العام للآية تصوير دقيق لعملية التخلق التي تبدأ في تلك المضغة حتى تكتمل، فالأشبه أن تكون غير مخلقة للتي لم تكتمل، والمخلقة للتي اكتملت.
- حمل المعنى في "غير مخلقة" على السقط لا يستقيم لأنه لم يتوجه إليه خطاب من قبل.
- كما أن من فسر المعنى على السقط ذهب إلى وجود مضغتين وليس مضغة واحدة وهو تأويل بعيد لأن "مخلقة وغير مخلقة" صفتان لمضغة واحدة.
- كما أن تكرار "من" تحمل دلالة تفصيل مراتب الخلق والانتقال من حال إلى آخر.
- مع ما في استدراك الطاهر وتفسيره للمعنى بأن المراد التي اكتملت والتي لم تكتمل من موافقة الحقائق العلمية وعلم الأجنة من فضل السبق، مع دقة الوصف، وروعة التعبير، وهي حقائق ما كان لأحد أن يتعرف عليها وقت نزول القرآن الكريم، بل ما وصل العالم إليها إلا بعد التقدم والتطور العلمي وبالقدر الذي أراده الله لهم.

ثانيها: من التفسير العلمي لآيات الرياح:

حديث القرآن الكريم عن الريح والرياح: للريح والرياح مساحة كبيرة في آي الذكر الحكيم، حتى غلب على الأسلوب القرآني الحديث عن الرياح في مقام الرحمة والخير ومن ذلك قوله –تعالى–: **{وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ}**(١)، وقوله –تعالى–: **{وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}**(٢)، وقوله: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ**

(١) سورة الأعراف: من الآية ٥٧.

(٢) سورة الحجر: من الآية ٢٢.

مُبَشِّرَاتٍ}[1]، والحديث عن الريح مع العذاب والشر، ومن ذلك قوله –تعالى–: **{وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ}**[2]، وقوله: **{وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ}**[3].

وعلل الطاهر ذلك بقوله: "وجمع الرياح لما شاع في استعمالهم من إطلاقها "بصيغة الجمع" على ريح بشارة بالمطر، لأن الرياح التي تثير سحابًا هي رياح مختلفة في هبوبها بين جنوب وشمال وصَبا ودبُور[4]، بخلاف اسم الريح المفردة فإنه غلب في الاستعمال إطلاقه على ريح القوة والشدة ... فلا تزال تشتد، وروي أن النبي –ﷺ– كان إذا هبَّت الريح قال: "اللهم اجعلها رياحًا لا ريحًا"[5][6].

وهي قاعدة مطردة في الأغلب: فقد يوجد في بعض آي الذكر الحكيم خلافها، ومن ذلك قوله –تعالى–: **{هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا}**[7] الآية، فقد وردت الريح مفردة وفي الخير – على خلاف القاعدة– وذلك لوجهين:

أحدهما: لفظي: وهو المقابلة، فإنه ذكر ما يقابلها: ريح العذاب.

الثاني: معنوي: وهو أن إتمام الرحمة هناك إنما يحصل بوحدة الريح.، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد، فإن اختلفت عليها الرياح تصادمت

(١) سورة الروم: من الآية ٤٦.

(٢) سورة الذاريات: من الآية ٤١.

(٣) سورة الحاقة: من الآية ٦.

(٤) الرياح أربع: الشمال: وهي التي تجيء عن يمينك إذا استقبلت قبلة العراق وهي في الصيف حارة، والجنوب تقابلها، والصبا من مطلع الشمس "مشرقية" وهي القبول، والدبور تقابلها "مغربية". ينظر: تفسير الرازي، ١/٣. نظم الدرر نقلاً عن أبي هلال العسكري، ١٣٨/٦.

(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده، عن ابن عباس –رضي الله عنهما– بلفظ: "اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابًا" ٣٤١/٤، برقم ٢٤٥٦، وقال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

(٦) التحرير والتنوير، ٧٤/٢.

(٧) سورة يونس: من الآية ٢٢.

وهلكت[١].

وللإمام الطاهر –رحمه الله– جهد بالغ –كعادته– في تتبع الحقائق العلمية ومقارنتها بدلالات الألفاظ القرآنية فَخَرَّج للأمة تفسيرات علمية دقيقة قائمة على ضوابط علمية فاقت –في بعض الأحيان– في توسعها النظريات العلمية الحديثة، وهاكم البيان:

النموذج الأول: تصريف الرياح بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}**[٢] إذ جمع الطاهر في تفسيره بين نعمة تصريف الرياح الإيمانية –كآية من آيات الخالق–، وكنعمة أعجب عند التفسيرات العلمية.

أمَّا كونها آية من آيات الخالق: لأن هبوب الرياح وركودها آية، واختلاف مهابِّها آية، فلولا الصانع الحكيم الذي أودع أسرار الكائنات لما هَبَّت الريح أو لما ركدت، ولما اختلفت مهابُّها، بل دامت من جهة واحدة وهذا موضع العبرة..، ومن تصريف الرياح –أيضًا– موضع نعمة وهو أن هبوبها قد يحتاج إليه أهل موضع للتنفيس من الحرارة أو لجلب الأسحبة، أو لطرد حشرات كالجراد ونحوه، أو لجلب مناخ مثل المطر .... فكل هذا موضع نعم، وهذا هو المشاهد للناس كلهم[٣].

وأمَّا التفسير العلمي: فقد عبَّر عنه قائلاً: وذلك أن سبب تصريف الرياح أن الله أحاط الكرة الأرضية بهواء خلقه معها.. وقد خلقه الله مؤلفاً من غازين هما (النيتروجين والأكسجين)، وفيه جزء آخر عارض فيه وهو جانب من البخار المائي المتصاعد له من تبخر البُخار، وهذا الهواء قابل للحرارة والبرودة بسبب مجاورة حار أو بارد، وحرارته تأتي من أشعة الشمس ومن صعود حرارة الأرض حين تسخنها الشمس، وبرودته تجيء من قلة حرارة الشمس، ومن برودة الثلوج الصاعدة من الأرض ومن الزمهرير الذي يتزايد بارتفاع الجو...، فيكون هواء في جهة حارة

(١) الإتقان ٢٢٢/١.

(٢) سورة البقرة: من الآية ١٦٤.

(٣) التحرير والتنوير، ٧٢/٢.

كالصحراء، وهواء في جهة باردة كالمنجمد، فوقع اختلاف بين الهواءين في الكثافة فصَعِد الخفيف وهو الحار إلى الأعلى وانحدر الكثيف إلى الأسفل، وبصعود الخفيف يترك فراغاً يخلفه فيه الكثيف طلباً للموازنة فتحدث حركة تسمى ريحاً، فإذا كانت الحركة خفيفة لقرب التفاوت بين الهواءين سميت الحركة نسيماً، وإذا اشتدت الحركة وأسرعت فهي الزوبعة، فالريح جنس لهاته الحركة، والنسيم والزوبعة أنواع له(١).

وعن علاقة الرياح بالسحاب: ذكر الطاهر أن الرياح من فوائدها الإعانة على تكوين السحاب، ونقله من موضع إلى موضع، وتنقية الكرة الهوائية مما يحل بها من الجراثيم المضرة، وهذان الأمران موضعا عبرة ونعمة لأهل العلم(٢).

ضوابط التفسير العلمي:

اللغة: فإن التصريف لغة: التحويل والتقليب من وجه إلى وجه:

يقال: صرفته في الأمر تصريفًا: قلبته فتقلب.

فالتصريف: صرف الشيء عن وجه إلى وجه(٣).

فاللغة لا تمنع ما عليه التفسير العلمي من أن تصريف الرياح قلب الهواء من مكان وصرف غيره إليه.

الاتفاق مع الحقائق العلمية: أوجزت الحقائق والنظريات الحديثة خلاصة ما أطنبه الطاهر، وحاصله: أن تصريف الرياح هو الأساس في توزيع الضغط الجوي والحرارة والرطوبة(٤). وأن علاقة الرياح بالسحاب: أن السحب إذا كانت هي حاملة الأرزاق –المطر– في باطنها، فإن الذي يقوم بتوزيع هذه الأرزاق على مستحقيها – بأمر الله تعالى– هي الرياح، وصرفها بين يدي رحمته ليكون توزيعها بالعدل المطلق، فالسحاب يتوجه إلى حاجة جميع الخلائق من إنسان وحيوان ونبات وعالم

(١) السابق، ٧٣/٢.

(٢) السابق، ٧٣/٢.

(٣) ينظر: لسان العرب، ١٨٩/٩، "صرف". تاج العروس، ١٦٣/٦، "صرف".

(٤) ينظر: مجلة الإعجاز العلمي، العدد الخامس، ص١٠-١٦، هيئة الإعجاز العلمي، مكة، المنظار الهندسي للقرآن الكريم، د. خالد فائق العبيدي، ص٣٢٩، دار المسيرة للنشر عمان، الأردن، ٢٠٠١م.

بحار بالعدل المطلق، ولا يمكن أن تدركه الرياح غير العاقلة، إنها إرادة الله يسوق السحاب حيث شاء أن ينزل(١).

لفظ "التصريف" أنسب للتفسير العلمي: إن لفظة "التصريف" عند المفسرين تحمل معنى "التغيير" أي تبديل وتغيير من جهة إلى جهة، أو تبديل لحال الرياح، فتأتي تارة مرة جنوبًا وشمالاً وقبولاً ودَبورًا(٢)، وتارة بالرحمة وتارة بالعذاب، وتارة لينة وتارة عاصفة، وتارة حارة وتارة باردة(٣).

والسحاب المسخر: بعثه من مكان إلى مكان، وقيل: ثبوته بين السماء والأرض فلا يهوي إلى جهة السفل مع ثقله بحمله(٤).

ويرى الطاهر أن التصريف من الصرف، وهو نقل بعض الهواء إلى مكان وصرف غيره إلى مكانه على طريق المجاز، وحمل المفسرون التصريف على التغيير على الحقيقة، لكنه يفوت ما في الآية من إعجاز علمي، مع أن الأنسب لحال الرياح والتفسير العلمي هو حمل التصريف على المجاز، فيقول: "وقد اختير التعبير بلفظ التصريف هنا دون لفظ التبديل أو الاختلاف لأنه اللفظ الذي يصلح معناه لحكاية ما في نفس الأمر من حال الرياح، لأن التصريف تفعيل من الصرف للمبالغة، وقد علمت أن منشأ الريح هو صرف بعض الهواء إلى مكان وصرف غيره إلى مكانه الذي كان فيه.. وهو ضرب من المجاز .. وأن نجعل التصريف بمعنى التغيير، أي: تبديل ريح من جهة إلى جهة فتبقى الحقيقة ويفوت الإعجاز العِلمي، ويكون اختيار لفظ التصريف دون التغيير لأنه أخف، وجُمع الرياح هنا لأن التصريف اقتضى

(١) ينظر: إعجاز القرآن في العلوم الجغرافية، د. محمد مختار عرفات، ص٩٨، دار اقرأ، دمشق، ٢٠٠٣م، المنظار الهندسي، ص٣٢٩.

(٢) ينظر: تفسير الطبري، ٢٧٦/٣، بحر العلوم، ١٣٩/١، تفسير الرازي، ٢٢/١٤، البحر المحيط، ١١٢/٢، روح المعاني، ٨١/٢.

(٣) ينظر: تفسير الرازي، ٢٢/١٩، تفسير القرطبي، ٢١٢/١.

(٤) ينظر: تفسير القرطبي، ٦٤/٢، الكشاف، ٩٦/١، تفسير القرطبي، ١٩٧/٢، البحر المحيط، ٨١/٢، تفسير أبي السعود، ١٨٤/١، محاسن التأويل، القاسمي، ١٦/٣، الناشر: عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٧م.

العدد، لأنها كلما تغير مهبها فقد صارت ريحاً غيرَ التي سبقت"[١].

وهو جمع دقيق ونفيس من الإمام يرجح به وجهة نظره الموافقة للتفسيرات العلمية، مع تجويزه لما عليه المفسرون، وأن حمل اللفظة على المجاز يناسب الحال المتعلقة بالرياح، وأن حمل اللفظة على الحقيقة له وجهة نظر معتبرة، فجمع بين التفسيرين، وأوضح معنى اللفظ في الحالين "الحقيقة والمجاز" بجمع دقيق، وتفسير بديع.

النموذج الثاني: إقلال الرياح السحاب بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ}**[٢] الآية، إذ يرى الطاهر أن إقلال الرياح للسحاب من الإعجاز العلمي، وذلك من وجوه:

أولها: أن إنزال المطر لا يكون إلا عن طريق إقلال الرياح للسحاب، وهي حقيقة علمية سبق إليها القرآن الكريم، فيقول: ومعنى أقلت: حملت، مشتق من القلة لأن الحامل يَعُد محموله قليلاً، فالهمزة فيه للجعل.

وإقلال الرياح السحاب: هو أن الرياح تمر على سطح الأرض، فيتجمع بها ما على السطح من البخار، وترفعه الرياح إلى العلوّ في الجو، حتى يبلغ نقطة باردة في أعلى الجوّ، فهناك ينقبض البخار، وتتجمع أجزاؤه فيصير سحابات، وكلما انضمت سحابة إلى أخرى حصلت منهما سحابات أثقل من إحداهما حين كانت منفصلة عن الأخرى، فيقل انتشارها إلى أن تصير سحابًا عظيمًا فيثقل ثم ينزل مطرًا[٣].

ثانيها: ليس كل السحاب يمطر، وإنما السحاب المتجمع، وهو ظاهر في كلام الطاهر: "وتتجمع أجزاؤه فيصير سحابات"[٤].

(١) التحرير والتنوير، ٧٣/٢.
(٢) سورة الأعراف: من الآية ٧٥.
(٣) التحرير والتنوير، ٣٣٤/٥.
(٤) السابق، ٣٣٤/٥.

ثالثها: ثقل السحاب، وقد أشار إلى هذه الحقيقة العلمية في قوله: "الثقال: البطيئة التنقل لما فيها من رطوبة الماء، وهو البخار، وهو السحاب المرجو منه المطر"(١).

رابعها: يضاف إلى التفسيرات العلمية ما فيها من الإعجاز العلمي واللغوي في الجمع في لفظ واحد بين التذكير والتأنيث، فالسحاب: اسم جمع لسحابة، فلذلك جاز إجراؤه على اعتبار التذكير نظرًا لتجرد لفظه من علامة التأنيث، وجاز اعتبار التأنيث فيه نظرًا لكونه في معنى الجمع، ولهذه النكتة وصف السحاب في ابتداء إرساله بأنها "تثير" ووصف بعد الغاية بأنها "ثقال". وهذا من إعجاز القرآن العلمي(٢).

*** ضوابط التفسير العلمي:**

اللغة: فاللغة تقرر في معنى "أقلت" حملت ورفعت.

أقل الشيء يقله واستقله يستقله: إذا رفعه وحمله، وأقل الشيء: رفعه، واستقل الطائر في طيرانه: نهض للطيران وارتفع في الهواء، ومنه قوله –تعالى–: **{حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا}** أي: حملت(٣).

الاتفاق مع الحقائق العلمية: التي قررت أن هناك رياحًا مركبة أفقية تسوق السحاب، ومركبة رأسية مسؤولة عن رفع السحب وحملها.

كما قررت أن وصف السحاب بالثقل وصف دقيق، ومصحح للنظريات الخاطئة عن السحب وخصائصها، وأن السحاب ثقال على عكس ما كان يُعتقد، وأنه ليس كل السحب تمطر(٤) وإنما لابد أن تتجمع وتثقل وهو ما عبر عنه بالسحاب الثقال.

الانفراد بالتفسير العلمي: إذا كان المفسرون قد اعتنوا بالمعنى إجمالاً على

(١) السابق، ٣٣٤/٥.

(٢) السابق، ٣٣٤/٥.

(٣) لسان العرب، ٥٧٩/٢، "قلل"، الكليات، لأبي البقاء الكفوي، ١١٧٦/١، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٤) ينظر: تيسير الرحيم الرحمن في الإعجاز العلمي للقرآن، د. لطيف أحمد عبود، ص١٦٨–١٦٩، بتصرف، مؤسسة النشر الإسلامي.

أنـه يـراد بـه: حتـى إذا حملـت الريـاح سـحابًا ثقـالاً بالمـاء الـذي تحملـه، سـقناه: أي السحاب لبلد ميت أي مجدب ليس فيه نبات، فالإقلال بمعنى الحمل(١). وهي إشارات مجملة، فإن الطاهر قد انفرد بالتفسير العلمي بكل تفصيل وبيان، بتجميع الحقائق العلمية كلها، ومقارنتها بدلالات الألفاظ، معتمدًا على اللغة، مبينًا الفارق بين المعنى المفهوم عند الناس، والمعنى المفهوم عند علماء الإعجاز العلمي، ومدى التكامل بين المعنيين.

النموذج الثالث: لواقح الرياح للسحاب والشجر بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}**(٢) إذ يرى الطاهر أنه لولا تلقيح الرياح للسحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة ما نزل المطر، ولولا تلقيحه للشجر "أي ثمره" لا تثبت ولا يصلح لها ثمر، فيقول: "**ومعنى الإلقاح:** أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين، فينشأ عن ذلك البخار الذي يصير ماءً في الجو ثم ينزل مطراً على الأرض، وأنها تلقح الشجر ذي الثمرة بأن تنقل إلى نَوْره(٣) غبرة دقيقة من نوْر الشجر الذكر فتصلح ثمرته أو تثبت، وبدون ذلك لا تثبت أو لا تصلح وهذا هو الإبّار(٤).

وبعضه لا يحصل إلا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة المثمرة، وبعضه يكتفى منه بغرس شجرة ذكر في خلال شجر الثمر"(٥).

(١) ينظر: تفسير القرطبي، ٢٢٩/٧، الجواهر الحسان، ٢٠/٢، فتح القدير، ٢١٢/٢، زاد المسير، ١٢٧/٣.
(٢) سورة الحجر: الآية ٢٢.
(٣) النَّوْرُ: نَوْرُ الشجر.. وتَنْوِير الشجرة إزهارها. "لسان العرب"، ٢٤٠/٥، "نور".
(٤) الإبار: أَبَرْتُ النخلَ آبِره أَبْرًا، إذا لقَّحته، فأنا آبر والنخل مأبور. "جمهرة اللغة"، ابن دريد، ٧٢/٢، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
(٥) التحرير والتنوير، ٤٧٢/٧.

*** ضوابط التفسير العلمي:**

اللغة: فالمعاجم اللغوية تقرر أن اللواقح من الرياح: التي تحمل الندى ثم تمجه في السحاب وفي كل شيء، فإذا اجتمع في السماء صار مطرًا(١). وريح لاقح: أي: ذات لقاح(٢).

فالتفسير العلمي للظاهر قائم على اللغة، فقد استعمل "لواقح" استعارة للرياح التي ترطب السحاب بالماء فينزل به المطر، فيقول: "لواقح: جمع لاَقح وهي الناقة الحبلى، واستعمل هنا استعارة للريح المشتملة على الرطوبة التي تكون سبباً في نزول المطر، كما استعمل في ضدها العقيم ضد اللاقح في قوله –تعالى–: {**إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ**}(٣)، وصالح لأن يكون جمع مُلقح: وهو الذي يجعل غيره لاقحًا، أي: الفحل إذا ألقح الناقة"(٤).

الاتفاق مع الحقائق العلمية: فلقد أثبتت الدراسات أن للرياح دورًا أساسيًا في إسقاط المطر من خلال تلقيح السحب بتوجيه عمل الحرارة والبرودة، بتلقيح السحب الحارة بالسحب الباردة، أو السحب الموجبة بالسالبة، فينشأ بخارًا ثم يكون ماءً، وأنه من أهم أنواع التلقيح ما تحمله الرياح من غبار من النبات المذكر إلى المؤنث لتلقيحه(٥).

دفاع عن جمهور المفسرين: ذكر الطاهر –رحمه الله– أن من بلاغة الآية إيراد وصف "لواقح" لإفادة كلا العملين اللذين تعملهما الرياح "تلقيح السحاب والشجر" وقد فسرت الآية بهما، واقتصر جمهور المفسرين على أنهما لواقح السحاب

---

(١) العين، ٤٧/٣، "لقح".

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٣٦٢/٤.

(٣) سورة الذاريات: من الآية ٤١.

(٤) التحرير والتنوير، ٤٧٢/٧.

(٥) ينظر: المعارف الكونية بين العلم والدين، نخبة من العلماء، ص٣٥٧، الإسلام في عصر العلم، محمد فريد وجدي، ص٣٥١، التفسير العلمي للآيات الكونية، د. بكر زكي عوض، ص٣٥٨، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م، نظرة علمية للكتب السماوية، د. فاروق الشيخ العبدلي، ص١١٨، دار الكتب والوثائق، بغداد، ٢٠٠٠م.

بالمطر[١].

وهو كلام مردود: لأن جمهرة المفسرين وإن لم يتوسعوا في التفسير العلمي كما فعل الطاهر –رحمه الله–، فإنهم ذكروا المعنى إجمالاً، والأهم أنهم اتفقوا مع ابن عاشور في بلاغة الآية وأن الوصف صالح لعمل الرياح في السحاب والشجر.

حتى قال الطبري: واختلف أهل العربية في وجه وصف الرياح باللقاح وإنما هي ملقحة لا لاقحة، وذلك أنها تلقح السحاب والشجر[٢].

فالمفسرون على أن الرياح "تلقح السحاب فتدر ماء، وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها"[٣] فلم يقتصروا على وصف دون آخر –كما ذكر الطاهر– بل اتفقوا معه في ذكر العملين للرياح بوصف واحد[٤]، فالآية عنوانها عند الجميع: "الرياح لواقح للشجر والسحاب".

وسبب ذلك –والله أعلم– أن لفظة "لواقح" لها معنيان صالحان يحملان الفكر على اختيارهما، فالرياح قد تحمل اللقاح من زهرة إلى أخرى، وقد يكون اللقاح إشارة إلى لقاح السحب وما يتبعه من تساقط المطر، ولا يتم إلا إذا حملت الرياح لواقحها، وهي أمور ما كان لأحد أن يتخيل معرفتها والوقوف عليها قبل نزول القرآن الكريم، فكان له فيها فضل السبق، مع دقة اللفظ.

النموذج الرابع: دور الرياح في تكوين السحاب بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: {**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا**}[٥] الآية، إذ يرى الطاهر أن لفظة "تثير" تشير إلى دور الرياح في تكوين السحاب بدفعه وتهييجه وتجميعه ثم بعد ذلك رفعه بعدما يكون بخارًا ويساق من مكان إلى آخر كيفما أراد الله فيكون مطرًا، فيقول: "{**فَتُثِيرُ سَحَابًا**}

(١) التحرير والتنوير، ٤٧٢/٧، بتصرف.
(٢) تفسير الطبري، ٨٥/١٧.
(٣) تفسير ابن كثير، ٥٣٠/٤.
(٤) ينظر: بحر العلوم، ٤٤٤/٢، تفسير الرازي، ٢٩٨/٩، تفسير القرطبي، ١٩/١٠، تفسير أبي السعود، ٦٩/٤، روح المعاني، ١٧٣/٩.
(٥) سورة الروم: من الآية ٤٨.

وذلك أن الرياح تحرِّك الأبخرة التي على سطح الأرض، وتُمدها برطوبات تسوقها إليها من الجهات النديَّة التي تمر عليها كالبحار والأنهار والبُحيرات والأراضين الندية، ويجتمع بعض ذلك إلى بعض وهو المعبر عنه بالإثارة.. فإذا بلغ حدُّ البُخارية رفعته الرياح من سطح الأرض إلى الجو"(١).

ضوابط التفسير العلمي:

اللغة: فالمعاجم اللغوية تقرر أن الثَّوْر: الهيجان(٢)، وأن كل ما استخرجته أو هجته فقد أثَرْتَه(٣). فإثارة الرياح تحركها ودفعها وسوقها، حتى قال الطاهر: "أي: تسوقه وتدفعه من مكان إلى مكان"(٤).

الاتفاق مع الحقائق العلمية: فقد أثبتت الحقائق العلمية أن السحاب كان بخارًا كامنًا في الهواء، ثم ظهر بالتكاثف لما انقلبت حالة الهواء من حيث التشبع، وهذا الانقلاب لا يكون إلا بفعل الرياح بحمل البخار إلى المناطق الباردة العلوية، ومن هنا فإن إثارة الرياح للسحاب هو أثر الرياح في تكوين السحاب لا نقله(٥).

الاتفاق في الإجمال والانفراد في التفصيل: اتفق الطاهر مع جمهرة المفسرين في إجمال المعنى، وأن المراد بالإثارة: سوقها، ونشرها، وتهييجها، ودفعها، وتحريكها من سكونها وتسييرها(٦)، وانفرد عنهم بتفصيل هذه الإثارة وتفسيرها علميًا بما يوافق النظريات الحديثة، ويقطع بفضل السبق للقرآن الكريم، مع جمال النظم، ودقة اللفظ.

(١) التحرير والتنوير، ٣٣٤/٥.

(٢) تاج العروس، الزبيدي، ٢٥٧٦/١٠، "ث و ر".

(٣) لسان العرب، ١٠٨/٤، "ثور".

(٤) التحرير والتنوير، ٤٦/١١.

(٥) الإسلام في عصر العلم، د. محمد أحمد الغمراوي، ص٢٤٩.

(٦) ينظر: تفسير الطبري، ١١٤/٢٠، بحر العلوم، ٣٦٤/٣، تفسير البغوي، ٢٧٦/٦، تفسير الخازن، ٢٤٢/٥، اللباب، ابن عادل، ١/١٣، تفسير الثعالبي، ١٩١/٣، فتح القدير، ٢٧٩/٥، زاد المسير، ٣٩٦/١.

ثالثها: من التفسير العلمي لآيات الليل والنهار:

النموذج الأول: انسلاخ النهار عن الليل بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ}**[1] إذ يرى الطاهر أن التعبير بالسلخ له دلالته العلمية فهو تصوير دقيق لحال إزالة غشاء النهار عن الليل بسلخ الشاة، فالليل مسلوخ عنه جلده، إشارة إلى أن الجزء الذي يتكون منه النهار يمثل قشرة رقيقة كالجلد، وأنها تسلخ فيبقى الظلام وهو الأصل، **فيقول:** "والسلخ: إزالة الجلد عن حيوان، فصار المعنى: الليل آية لهم في حال إزالة غشاء نور النهار عنه فيبقى عليهم الليل، فشبه النهار بجلد الشاة ونحوها يغطي ما تحته منها كما يغطي النهار ظلمةَ الليل في الصباح، وشبه كشف النهار وإزالته بسلخ الجلد عن نحو الشاة، فصار الليل بمنزلة جسم الحيوان المسلوخ منه جلده، وليس الليل بمقصود بالتشبيه، وإنما المقصود تشبيه زوال النهار عنه، فاستتبع ذلك أن الليل يبقى شبه الجسم المسلوخ عنه جلده، ووجه ذلك أن الظلمة هي الحالة السابقة للعوالم قبل خلق النور في الأجسام النيّرة.."[2].

ضوابط التفسير العلمي:

اللغة: المعاجم اللغوية على أن السلخ هو خروج شيء من شيء. قال الخليل: السلخ: كشط الإهاب[3]، وسلخت الشهر: خرجت منه، وانسلخ النهار من الليل: خرج منه خروجًا لا يبقى معه شيء من ضوئه[4].

فالسين واللام والخاء أصل واحد وهو إخراج الشيء عن جلده[5].

وفي اللسان: سَلَخت المرأة عنها درعها: نزعته[6].

وفي المفردات: السلخ: نزع جلد الحيوان[7].

---

(١) سورة يس: الآية ٣٧.

(٢) التحرير والتنوير، ٣٧/١٢.

(٣) الإهاب: اسم لغير المدبوغ، "التعريفات"، الجرجاني، ١٢/١.

(٤) العين، ١٦٨/٤، "سلخ".

(٥) مقاييس اللغة، ٩٤/٣، "سلخ".

(٦) لسان العرب، ٢٥/٣، "سلخ".

(٧) المفردات، ٧٠٧/١.

فاللغة توافق التفسير العلمي، فالسلخ حركة تتطلب جهدًا وشدة، وفيها تصوير دقيق للعين وهي ترى انسلاخها وكشطها عن الكون حتى لا يبقى إلا الظلام.

الاتفاق مع الحقائق العلمية: لقد كشفت الحقائق العلمية أن الليل يحيط بالكرة الأرضية من كل مكان، وأن الجزء الذي يتكون فيه النهار يمثل قشرة رقيقة تشبه الجلد، وإذا دارت الأرض سُلخت حالة النهار الرقيقة، وأن الظلام الكوني هو الأصل لأنه سائد ودائم حول الأجرام السماوية(١).

انفراد متميز: اكتفى جمهور المفسرين بذكر معنى السلخ وأنه يراد به الخروج أو النزع أو الإزالة، بينما فصل الطاهر المعنى وانفرد بذكر تفصيلات علمية حاصلها أن الكون يعيش في ظلمة موحشة، وأن الله ينزع طبقة النهار عن الليل كما ينزع جلد الحيوان عن لحمه، وأن التعبير بالسلخ بدل الخروج هو الأوفق للحقائق والتفسيرات العلمية، وهي ظاهرة لا يمكن الوقوف عليها إلا لمن صعد الفضاء، فكان للقرآن فيها فضل السبق.

النموذج الثاني: كروية الأرض بين القرآن والتفسير العلمي:

وذلك في قوله –تعالى–: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ}**(٢) الآية، يقرر الطاهر أن لفظة "يكور" وإيثار مادة التكوير دون غيرها من معجزات القرآن العلمية التي ما كان لأحد أن يقف عليها من العرب أو جمهور البشر، ففيها الإشارة واضحة إلى كروية الأرض، **فيقول:** "التكوير: حقيقته: اللف واللـيُّ، يقال: كَوَّر العمامةَ على رأسه إذا لواها ولفَّها، ومثّلت به هنا هيئة غشيان الليل على النهار في جزء من سطح الأرض..، وهو تمثيل بديع قابل للتجزئة بأن تشبه الأرض بالرأس، ويشبه تعاور(٣) الليل والنهار عليها بلف طيات العمامة، ومما يزيده إبداعاً إيثار مادة التكوير الذي هو معجزة علمية من معجزات القرآن المشار إليها في المقدمة الرابعة والموضحة في المقدمة العاشرة، فإن مادة

(١) ينظر: المعارف الكونية بين العلم والدين، نخبة من العلماء، ص٢٧٠، تيسير الرحيم الرحمن في الإعجاز العلمي للقرآن، د. لطيف أحمد عبود، ص١٤٥.

(٢) سورة الزمر: من الآية ٥.

(٣) تعاور: تواظب، "وتعاورت الرياح رسم الدار.. أي: تواظبت عليه"، لسان العرب، ٦١٢/٤، "عور".

التكوير جَائية من اسم الكُرة، وهي الجسم المستدير من جميع جهاته على التساوي، والأرض كروية الشكل في الواقع، وذلك كان يجهله العرب، وجمهور البشر يومئذٍ، فأومأ القرآن إليه بوصف العَرضين اللذين يعتريان الأرض على التعاقب وهما النور والظلمة، أو الليل والنهار، إذ جعل تعاورهما تكويراً؛ لأن عَرَض الكرة يكون كروياً تبعاً لذاتها"(١).

ضوابط التفسير العلمي:

اللغة: المعاجم اللغوية على أن لفظة التكوير تدور حول التدوير.

قال ابن فارس: الكاف والواو والراء أصل صحيح يدل على دورٍ وتجمع..، وكور العمامة: إذا دورها، وقوله: "يكور الليل على النهار" أي: يدير هذا على ذاك، ويدير ذاك على هذا(٢).

وفي اللسان: قال النضر(٣): كل دارة من العمامة كَوْر، وكل دَورٍ كَوْرٌ(٤).

الاتفاق مع الحقائق العلمية: أكدت الحقائق والنظريات الحديثة أن الأرض كروية، وأن النهار يغطي نصف الكرة الأرضية في وقت ما، ثم يغطي نصفها الآخر في وقت لاحق، وكذلك يفعل الليل، وبنفس التساوي، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية، وتدور حول نفسها كل يوم(٥).

انفراد متميز: بمراجعة أقوال المفسرين في معنى "التكوير" أحصرها في ثلاثة:

أولها: يغشى هذا على هذا، وهذا على هذا(٦).

ثانيها: يزيد في كل واحد منهما بقدر ما ينقص من الآخر(٧).

ثالثها: يتعاقبان، أي: أن كلاً منهما يكر على الآخر كرورًا متتابعًا كأكوار

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٨٠/١٢.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ١٤٦/٥، "كور".

(٣) هو النضر بن شميل الإمام الحافظ اللغوي المتوفى سنة ٢٢١هـ. ينظر: "سير أعلام النبلاء"، شمس الدين الذهبي، ٤٢٦/١٠، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.

(٤) لسان العرب، ١٥٥/٥، "كور".

(٥) تأملات في الدين والعلم، د. أحمد مدحت إسلام، ص٣٩-٤٠، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.

(٦) اللباب، ابن عادل، ٤٠١/١٣، تفسير الثعالبي، ٣١٥/٣.

(٧) ينظر: تفسير الطبري، ٢٥٣/٢١، تفسير البغوي، ١٠٨/٧، تفسير الخازن، ٣٦/٥، تفسير ابن كثير، ٢٣٤/١٥، زاد المسير، ٢٥٣/٥.

العمامة[١].

وهي –كما يبدو– معانٍ مجملة لا علاقة لها بتفصيل علمي، إلا أن الطاهر قد انفرد بتفصيل التفسير العلمي بما يتفق مع الحقائق العلمية معتمدًا على اللغة، وهو انفراد متميز في بابه.

أقول: ومع هذا الانفراد للطاهر فإن المتأمل في معنى التكوير الذي يراد به تعاقب الليل والنهار عند بعض المفسرين يرى فيه إشارة إلى هذه الحقيقة العلمية إذ لا يمكن لهما أن يتعاقبا إلا والأرض كروية، بحيث يتعاقب أحدهما على الآخر، يتعاقب النهار على الليل فيكون نصف الأرض مظلمًا، والعكس، وهي حقيقة صوبت اعتقاد الناس لفترة طويلة أن الأرض مسطحة، فإذا بالقرآن يشير إليها بلفظة واحدة "يكور" أي: يلف من كل جانب، وإذا باللفظة القرآنية تصحح، وتقرر، وتسبق.

رابعها: من التفسير العلمي لآيات البحار:

ومن ذلك: **عدم اختلاط الماءين الملح والعذب بين القرآن والتفسير العلمي:**

تحدث القرآن الكريم عن هذه الظاهرة في مواطن ثلاثة من آي الذكر الحكيم، في قوله –تعالى–: **{وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا}**[٢]، وقوله –تعالى–: **{وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ}**[٣]، وقوله –تعالى–: **{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ}**[٤].

والحديث عن بحرين عذب وملح يلتقيان دون أن يمتزج أحدهما بالآخر فلا يختلط ماء الأنهار عند مصابها بمياه البحار إلا في عرض البحر بعيدًا عن الشاطئ.

وقد تحدث الطاهر عن هذه الظاهرة علميًا في الموضعين الأول والثالث.

---

(١) تفسير النيسابوري، ٦/٣٩٥.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٥٣.

(٣) سورة فاطر: من الآية ١٢.

(٤) سورة الرحمن: الآيات ١٩–٢٠.

ففي سورة الفرقان عَرَّف بالألفاظ أولاً، ثم حدد أن التقاء البحرين يراد به ملتقى ماء نهري الفرات والدجلة مع ماء بحر خليج العجم(١)، وأن سبب عدم الالتقاء علميًا ما في خواص الماء الملح من تركيب يمنع العذب من الاختلاط معه وهذا هو البرزخ. فيقول: "والمرج: الخلط، واستعير هنا لشدة المجاورة، والقرينة قوله: **{وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا}**، والبحر: الماء المستبحر أي: الكثير العظيم، والعذب: الحلو، والفرات: شديد الحلاوة، والمِلح –بكسر الميم– وصف به بمعنى المالح، ولا يقال في الفصيح إلا مِلح، وأما مالح فقليل، وأريد هنا ملتقى ماء نهري الفرات والدجلة مع ماء بحر خليج العجم، والمراد بالبرزخ: تشبيه ما في تركيب الماء الملح مما يدفع تخلل الماء العذب فيه بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر، ويبقى كلاهما حافظًا لطعمه عند المصبِّ. و"محجورًا" وصف لـ "حجرًا" مشتق من مادته للدلالة على تمكن المعنى المشتق منه"(٢).

وزاد الأمر إيضاحًا في سورة الرحمن بأن المراد بالبرزخ الذي بينهما: الفاصل بين الماءين الحلو والمالح، بحيث لا يغير أحد البحرين طعم الآخر بجواره، وذلك بما في كل ماء منهما من خصائص تدفع عنه اختلاط الآخر به، وهذا من مسائل الثقل النوعي..، وأنه لا يبغي أحدهما على الآخر، أي: لا يغلب عليه فيفسد طعمه، فاستعير لهذه الغلبة لفظة البغي الذي حقيقته عدم الاعتداء والظلم(٣).

ثم رجح أن المراد بالبحرين البحر الأحمر: الذي عليه شطوط تهامة مثل: جُدّة ويُنبع..، وبحر عمان: وهو بحر العرب الذي عليه حضرموت وعدن وبلاد اليمن، على اعتبار أنهما بحران معروفان للعرب(٤).

(١) المسمى اليوم بالخليج الفارسي، "التحرير والتنوير" ٢٨٧/١٤. وهو خليج موجود في جنوب غرب آسيا بين منطقة الخليج من الغرب وإيران من الشرق، وهو امتداد لبحر عمان. "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، أبو عبدالله المقدسي، ص٧، الناشر: مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م.

(٢) التحرير والتنوير، ١٥/١٠.

(٣) السابق، ٢٨٧/١٤.

(٤) السابق، ٢٨٧/١٤.

ضوابط التفسير العلمي:

اللغة: المعاجم اللغوية تقرر أن المَرْج: أرض واسعة فيها نبت كثير تمرح فيها الدواب، وأن قوله –تعالى–: **{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ}** أي: لاقى بين البحر العذب والملح فالتقيا، ولا يختلط أحدهما بالآخر(١).

وقال ابن فارس: الميم والراء والجيم أصل صحيح يدل على مجيء وذهاب واضطراب، وقوله –تعالى–: **{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ}** كأنه –جلَّ ثناؤه– أرسلهما فمرجا(٢).

وفي اللسان: خلطهما حتى التقيا(٣).

كما أن البرزخ لغة: ما بين كل شيئين، أي الحائل بينهما(٤)، وفي اللسان: الحاجز الخفي(٥).

وكلها تتفق مع التفسير العلمي في أن البحرين يلتقيان ومفصول بينهما بحاجز فلا يمتزجان وإن لم تذكر السبب العلمي لهذا الفصل.

الاتفاق مع الحقائق العلمية: فقد أكدت عدم اختلاط الماء العذب بالماء المالح، لدرجة أن اختلاط المياه لا يتم أحيانًا إلا في عرض البحر، ويظل نوعا الماء منفصلين لمسافات طويلة وكأن بينهما فاصلاً، ويرجع ذلك إلى اختلاف التجاذب بين جزئيات الماء العذب والماء المِلح لاختلاف كثافتهما، فيبدو لنا بوضوح الحد الفاصل بينهما، والبرزخ: الحد الفاصل الناشئ عن قوة الجاذبية التي تجعل الأنهار تصب في البحار وليس العكس(٦).

انفراد متميز: في الوقت الذي اكتفى فيه المفسرون بالمعنى إجمالاً، بأن

(١) العين، ١٢٠/٦، "مرج".
(٢) مقاييس اللغة، ٣١٥/٥، "مرج".
(٣) لسان العرب، ٣١٤/٢، "مرج".
(٤) الصحاح، الجوهري، ٤١٩/١، "برزخ".
(٥) لسان العرب، ٨/٣، "برزخ".
(٦) ينظر: الكون والإعجاز العلمي للقرآن، د. منصور محمد حسب النبي، ص١٧٧، إعجاز القرآن في العلوم الجغرافية، د. محمد مختار عرفات، ص١١٠، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، محمد السيد أرناؤوط، ص٢٧٢.

المراد: خلطهما فلا يبغيان[١]، إذ بالطاهر يفصل المعنى، ويذكر ما فيه من تفسيرات علمية قائمة على ضوابط، فإذا بالظاهرة تتجلى، والإعجاز يتضح.

رأي الباحث في تحديد موقع البحرين:

ذكر العلامة الطبري أن البحرين: بحر فارس وبحر الروم، أو عنى به بحر السماء وبحر الأرض، ورجح هذا القول[٢].

وذكر العلامة البغوي أنهما بحر الروم وبحر الهند، وعن قتادة: بحر فارس وبحر الروم[٣]. وذكر الطاهر أنهما نهر الفرات مع بحر خليج العجم[٤]، ورجح أنهما البحر الأحمر وبحر العرب[٥].

وأرى –والله أعلم– أن الأولى حمل المعنى على عموم البحرين العذب والملح بلا تخصيص، فهما يلتقيان ويختلطان، وأن الله –سبحانه– جعل بينهما حاجزًا ومانعًا، لتنتفع البشرية من هذا الفصل، فالعذب منه يشربون ويسقون، والملح مستقر للسفن ويتولد فيه الأسماك، ويستخرج منه –في الغالب– اللؤلؤ والمرجان، فكل بحرين فيهما هاتان الصفتان "عذب وملح" يندرجان في المعنى ويتحقق بهما الإعجاز، حتى قال الشيخ أبو زهرة (ت ١٣٩٤هـ): "هذه الآية من دلائل الإعجاز، لأن محمدًا –ﷺ لم ير البحار التي تمخر عبابها السفن، فذكره –سبحانه– لخواصها في القرآن دليل على أنه ليس من عند محمد –ﷺ– الذي لم يرها ولم يعرفها، ودليل على أن الكلام لله –تعالى– خالق البحر واليابس والأنهار والبحار، وهو بكل شيء عليم"[٦].

وهي من الحقائق العلمية التي ما كان لأحد أن يقف على تفاصيلها وقت نزول القرآن الكريم، لا سيما وعلم البحار من العلوم الحديثة في أزماننا المعاصرة.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري، ٢٨٢/١٩، بحر العلوم، ٢٢٩/٤، تفسير البغوي، ٤٤٤/٧، تفسير الرازي ٤٠/١١، فتح القدير، ٢٨٥/٥.

(٢) تفسير الطبري، ٣٠/٢٣.

(٣) تفسير البغوي، ٤٤٤/٧.

(٤) التحرير والتنوير، ١٠٣/١٠.

(٥) السابق، ٢٨٧/١٤.

(٦) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٢٩٨/١٠، الناشر: دار الفكر العربي.

وبعد هذا الإبحار الماتع: يقف الباحث في نهاية هذا البحث، الذي يمثل موسوعة الطاهر العلمية في التفسير العلمي مع أهم النتائج التي تضاف إلى ما سبق، حاصلها:

- أن تفسير الطاهر يجمع بين طيَّاته موسوعات علمية في شتى العلوم والفنون.
- التفسيرات العلمية للطاهر قائمة على اللغة ومستندة إليها، ومتقوية بها، حتى إن الباحث ليستخرج من تفسيره معاجم لغوية وهو يبحث عن تفسيراته العلمية.
- التكامل التام والتناغم بين دلالات القرآن الكريم والحقائق العلمية، وأنه كلما اكتشف العلماء حقيقة أو نظرية علمية كان للقرآن فيها فضل السبق.
- أهمية التفسير العلمي للمفسر، فهو بقدر ما يظهر عظمة دلالات الألفاظ القرآنية في إعجازها، فقد يحتاجه المفسر عند ترجيح المعنى، كما في تحديد موقع البحرين الملح والعذب، فلما كانت الحقائق العلمية تقرر تواجد هذه الخواص في كل بحرين بلا تحديد، فقد استعين بهذه الحقيقة على ترجيح المعنى.
- إن سكوت المفسرين أو بعضهم على عدم تناول بعض الحقائق العلمية لا يعيبهم، لأنهم ربما لم يدركوها، ومن أدركها منهم أشار إلى بعضها ولم يتعرض لأغلبها اعتمادًا منه على إيضاح المعاني فقط، وإنما تميز من تعرض لها لا سيما في الصحيح منها.
- أن آيات القرآن الكريم تحوي أسرار خلودها، وتجمع معالم تجديدها، وتحوي من الحقائق العلمية أو الإشارات إليها ما يكشفه جيل بعد جيل، فكان لزامًا على الباحثين –لا سيما في علم التفسير– التعرف على هذه الحقائق والنظريات للوقوف على أنواع جديدة من الإعجاز القرآني يسمى بالإعجاز العلمي، الذي هو أهم معالم التجديد في العصر الحديث.
- أن الحقائق العلمية التي توصل إليها العلماء، واعتمد عليها الطاهر في تفسيره العلمي، ما هي إلا تعبير عن قدراتهم وملكاتهم، أما الإحاطة بجميع جوانب التفسير العلمي للظواهر الكونية فهو فوق طاقة البشر، ولن تصل البشرية إلا للقدر الذي أراده الله لهم، ويسَّر لهم سبل الوصول إليه، وأدوات التحقق منه.

« الخاتمة »

أحمد الله –سبحانه– وأشكره على عظيم فضله، وجزيل إحسانه، أن وفقني لإتمام هذا البحث، مع اعترافي بالتقصير، واعتذاري عما فيه من خطأ أو زلل غير مقصودين.

وبعد: فيطيب لي في ختام هذا البحث المتواضع أن أقف مع أهم نتائجه التي توصلت إليها، وهي على النحو التالي:

- إن أدق ما يقال في تعريف التفسير العلمي أنه توظيف العلوم في فهم آيات القرآن الكريم على نحو يساير التطور العلمي وينتقل به إلى درجة الإعجاز.
- التفسير العلمي خادم للقرآن الكريم وليس حاكمًا عليه، كما قد يفهم –خطأ– من أكثر التعاريف المذكورة له.
- أن فارقًا بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي، فالأول يكشف عن معنى الآية بما تم كشفه من العلوم الكونية سواء أكان الكشف قطعيًا أو ظنيًا راجحًا، أما الثاني فهو إخبار بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيرًا.
- التفسير العلمي يتعلق بالقطعي أو الظني الراجح، أما الإعجاز فلا يتعلق إلا بالحقائق المثبتة.
- التفسير العلمي أعم من الإعجاز لأنه يتعلق بالحقائق والمعاني في جميع الآيات، اكتشفت أم لم تكتشف، أما الإعجاز فيقتصر على ما تم اكتشافه فقط.
- التفسير العلمي يدخله الخطأ والصواب، بخلاف الإعجاز العلمي.
- أن فارقًا بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية، فالنظرية: مجموعة فروض قابلة للتعديل والتغيير والتطور، أما الحقيقة فهي الوصف الصادق لأية ظاهرة أو لأي جانب منها، فالنظرية: بدايات العلم، والحقيقة: نهاية ما وصل إليه.
- يعتبر الإمام الغزالي هو أول من أشار إلى هذا العلم بوضوح وإسهاب، وتناوله في تفسير بعض آي الذكر الحكيم بتفصيل.
- نال التفسير العلمي عناية العلماء –لا سيما المفسرين– بتفاوت في القلة والكثرة، حسب معطيات عصرهم.

- يرى الباحث –والله أعلم– بعد بحث مستفيض أن الطاهر بن عاشور –رحمه الله– هو أهم المساهمين في هذا النوع من التفسير، فله إسهامات تستقل بمؤلفات.
- اعتناء كثير من المفسرين بالتفسير العلمي يدور بين الإشارة والاتجاه والمنهج.
- لخطورة ما يترتب على التفسير العلمي من مخاطر قعَّد العلماء له ضوابط لابد من مراعاتها حتى يكون التفسير العلمي مقبولاً وصحيحًا، كان أهمها اللغة، وموافقة الحقائق العلمية الثابتة أو الراجحة، والابتعاد عن النظريات التي تخضع للتغييرات.
- لا يعترض على التفسير العلمي بحجة أنه تفسير لم يقل به المتقدمون، لأن عدم ذكر المتقدمين له لا يمنع المتأخرين من استخراجه والاستفادة به في علم التفسير.
- للعلماء اتجاهان في التفسير العلمي، أحدهما مؤيد، والآخر معارض، وكلاهما له وجهة نظر معتبرة، ويرى الباحث أن التأييد المنضبط بقواعده أولى من المعارضة المطلقة.
- أهم القواعد التي يجب مراعاتها في التفسير العلمي أن تحمل الحقائق العلمية بتفسيراتها العلمية على القرآن، لا العكس، فيكون القرآن حاكمًا لا محكومًا، وأصلاً لا تابعًا.
- لم يقف اعتناء الطاهر في التفسير العلمي بتوظيفه في بيان معاني الآيات، بل اعتبره من مقاصد التفسير وغاياته، وأن القرآن كما هو معجز ببلاغة نظمه، فهو معجز بتفسيراته العلمية.
- حقق الطاهر في تفسيره منهجية التفسير العلمي وذلك باستخراج العلوم من الآيات بضوابطها، وتطبيق النظريات عليها، واستخدام العلوم لفهم معاني الآيات، بل وزاد عليها بإظهار مدى التكامل بين الآيات القرآنية والحقائق العلمية وأنهما يتكاملان ولا يتصادمان.

- للطاهر بن عاشور جهد بالغ في التفسير العلمي لآيات السماء في القرآن الكريم، وما تشتمل عليه من علوم ومعارف ما كان للناس علم بها قبل القرآن الكريم، وهي تفسيرات علمية تتوافق مع الضوابط العلمية ودلالات الألفاظ، وتجنب التكلف في التفسير، والتعسف في التأويل، مع ما انفرد به من تفسير تميز فيه.
- تعرض الطاهر –رحمه الله– لأغلب التفسيرات العلمية المتعلقة بنظام المجموعة الشمسية وما يدور حولها من أجرام، وما يحسب له فيها أنه لم يعتمد فيها من تفسيرات علمية إلا ما كان منضبطًا مع أصول اللغة، أما ما عارضها فلا قبول له عنده.
- تتبع الطاهر آيات الجبال في القرآن الكريم وما فيها من تفسيرات علمية، مع مراعاة ضوابط التفسير العلمي الصحيح لها، إظهارًا لعظمة القرآن في تأسيس علوم الجبال وما فيها من تطور هائل جلها في كتاب الله –تعالى–.
- للطاهر بن عاشور موسوعة علمية في تفسير آيات خلق الإنسان، وآيات الرياح، والليل والنهار، وآيات البحار، أظهر فيها مدى التكامل بين الإشارات القرآنية والحقائق العلمية، مع فضل السبق للقرآن الكريم فيها.
- أظهر الطاهر الأهمية الكبرى في دراسة التفسير العلمي للآيات الكونية، فهي تظهر عظمة دلالات الألفاظ القرآنية، مع ما فيها من تناغم مع الحقائق العلمية.
- التفسير العلمي وفائدته للمفسر عند الترجيح، فقد يرجح المفسر المعنى الذي يتوافق مع الحقائق العلمية، فهو عنده مقدم وأولى من المعنى الموافق للنظرية القابلة للتغيير.
- إن سكوت بعض المفسرين عن عدم تناول بعض الحقائق العلمية لا يعيبهم، لأنهم إما لم يدركوها، أو أدركوها وأشاروا إليها.
- الحقائق والنظريات العلمية في علم التفسير يمثلان نوعًا مستقلاً بالإعجاز جدير بالبحث، لا سيما عند الباحثين في علم التفسير.
- الحقائق العلمية التي توصل إليها العلماء ما هي إلا تعبير عن قدراتهم وملكاتهم، أما الإحاطة بها ففوق طاقة البشر.

التوصيات:

- ضرورة الاهتمام بالبحوث المتعلقة بالتفسير العلمي عند العلماء ومقارنتها بضوابطها العلمية، لتحقق الاستفادة منها على الوجه الأكمل.
- ضرورة تحقيق كتب التراث، وإبراز ما فيها من معالم للتجديد في التفسير، وكيفية الاستفادة منها في كل العصور.
- عقد ندوات مستمرة –لا سيما في جامعة الأزهر– للتعريف بمدى جهود المفسرين في تجديد التراث، وإثبات أن أول من جدد في كتب التراث هم أهل التراث أنفسهم، فإن معالم التجديد لم تخف عليهم، مع مراجعة ما فيها من هنات وتصويبها، فهذه طبيعة البحث العلمي، فلا كمال ولا تمام إلا لكتاب الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

❁ ❁ ❁

« فهرس المصادر والمراجع »

- اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم، د. محمد إبراهيم الشريف، الناشر: دار السلام للطباعة.
- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، أبو عبدالله المقدسي، الناشر: مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م.
- إحياء علوم الدين، الغزالي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.
- الأسس الدلالية في تحليل النصوص العربية، د. محمود فهمي حجازي، الناشر: دار الثقافة، القاهرة.
- الإسلام في عصر العلم، د. محمد أحمد الغمراوي، الناشر: مطبعة السعادة، مصر، ١٩٧٣.
- الإسلام في عصر العلم، محمد فريد وجدي، الناشر: دار الكتاب العربي.
- الإسلام والكون، د. عبدالغني عبود، الناشر: دار الفكر العربي، الطبعة الثانية.
- الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، د. كارم السيد غنيم، الناشر: دار الفكر العربي.
- أصول البحث العلمي، د. جابر جاد نصار، الناشر: دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- أصول التفسير وقواعده، خالد عبدالرحمن العك، الناشر: دار النفائس، ١٩٨٦م.
- أصول الفقه، محمد أبو زهرة، الناشر: دار الفكر العربي.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، الناشر: مجمع الفقه الإسلامي، جدة.
- الإعجاز البياني في القرآن الكريم، عمار ساسي، الناشر: دار المعارف، ٢٠٠٣م.
- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. محمد سيد أرناؤوط، الناشر: مكتبة مدبولي.

- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبدالله المصلح الصاوي، الناشر: الهيئة العالمية للإعجاز، ٢٠٠٨م.
- الإعجاز العلمي في القرآن، رعد طاهر رشيد العمري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي.
- الإعجاز العلمي للقرآن، أحمد فؤاد باشا، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- إعجاز القرآن اللغوي في فكر النورسي، د. عبدالرازق عبدالرحمن السعدي، الناشر: دار الأنبار، بغداد، ١٩٩٥م.
- إعجاز القرآن في العلوم الجغرافية، د. محمد مختار عرفات، الناشر: دار اقرأ، دمشق، ٢٠٠٣م.
- إعجاز القرآن في خلق الإنسان، د. محمد كمال عبدالعزيز، الناشر: مكتبة ابن سينا.
- الأعلام، الزركلي، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.
- آيات الآفاق: تدبر في أماكن ذكرت في القرآن الكريم، حازم عوض، الناشر: وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠٢م.
- أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة الصوفي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.
- بحوث مؤتمر الإعجاز القرآني، بغداد سنة ١٤١٠هـ، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.
- بديع القرآن، ابن أبي الأصبع، الناشر: دار نهضة مصر، القاهرة.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- البيان في إعجاز القرآن، صلاح عبدالفتاح الخالدي، الناشر: دار عمان للنشر والتوزيع، ١٩٩٢م.

- تاج العروس، الزبيدي، الناشر: دار الهداية.
- تـأملات فـي الـدين والعلـم، د. أحمـد مـدحت إسـلام، الناشـر: دار الفكـر العربـي، القاهرة، ١٩٩٧م.
- التأويـل والتأويـل المفرط، أمبرتـو إيكـو، ترجمـة: ناصـر الحلـواني، مركـز الإنمـاء الحضاري، ٢٠٠٩م.
- التحرير والتنوير، ابن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر.
- التعاريف، محمد عبدالرؤوف المناوي، الناشر: دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- التعبير الفنـي فـي القرآن، بكري شيخ أمين، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة.
- تعريـف الدارسين بمنـاهج المفسرين، د. صـلاح عبدالفتاح الخالـدي، الناشـر: دار القلم، دمشق.
- تفسير ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، ابن كثير، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- تفسـير أبـي السـعود "إرشـاد العقل السـليم إلـى مزايـا الكتـاب الكـريم"، أبـو السـعود، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- تفسير البغوي "معالم التنزيل"، البغوي، الناشر: دار طيبة، ١٩٨٩م.
- تفسير الثعالبي "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، الثعالبي، الناشر: دار إحياء التراث العربي.
- تفسـير الخـازن "لبـاب التأويـل فـي معـاني التنزيـل"، الخـازن، الناشـر: دار الكتـب العلمية، ٢٠٠٤م.
- تفسـير الطبـري "جـامع البيـان فـي تأويـل آي القرآن"، الطبـري، الناشـر: مؤسسـة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- التفسير العلمي للآيات الكونية، تاريخه وموقف العلماء منه، د. بكر زكي عوض، الناشر: مكتبة الكتب.

- التفسير العلمي للقرآن الكريم، صلاح عبد علي، ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، بغداد، ١٩٨٧م.
- تفسير القرآن الحكيم "تفسير المنار"، محمد رشيد رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠.
- تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت، طبعة دار الشروق، لبنان.
- تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي، الناشر: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٦م.
- تفسير الماوردي "النكت والعيون"، الماوردي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- تفسير المراغي، أحمد المراغي، الناشر: مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٩٤٦م.
- تفسير النيسابوري "غرائب القرآن ورغائب الفرقان"، النيسابوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، الناشر: مكتبة وهبة، ٢٠٠٠م.
- التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، محمد هادي معرفة، الناشر: الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.
- التفسير ومناهج المفسرين، د. جمال محمود الهوبي، مطبعة المقداد، غزة، ١٩٩٩م.
- التقريب لتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، محمد بن إبراهيم الحمد، الناشر: دار ابن خزيمة.
- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- تيسير الرحيم الرحمن في الإعجاز العلمي للقرآن، د. لطيف أحمد عبود، الناشر: دار الجيل.
- جماليات المفردة القرآنية، د. أحمد ياسوف، الناشر: دار المكتبي، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

- جمهرة اللغة، ابن دريد، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- جواهر القرآن ودرره، أبو حامد الغزالي، الناشر: دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
- الجواهر في تفسير القرآن، طنطاوي جوهري، الناشر: مصطفى البابي الحلبي.
- الحيوان، الجاحظ، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
- الخصائص، ابن جني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.
- الدر المصون في علم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، الناشر: دار القلم.
- دراسات في أصول تفسير القرآن، د. محسن عبدالحميد، طبعة الوطن العربي، بغداد، ١٩٨٩م.
- دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، طبعة نهضة مصر، ١٩٦٧م.
- دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، الناشر: مكتبة الخانجي.
- روائع الإعجاز في القرآن الكريم والسنة النبوية، هيثم جمعة هلال، الناشر: دار الكتاب العربي.
- زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، الناشر: دار الفكر العربي.
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، الخطيب الشربيني، الناشر: مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٨٥هـ.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.
- صحيح البخاري "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -ﷺ- وسننه وأيامه"، البخاري، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- صحيح مسلم، "المسند الصحيح.."، مسلم بن الحجاج، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، الناشر: دار الصابوني، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- الطراز المتضمن أسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- علل وأدوية، الشيخ محمد الغزالي، الناشر: دار نهضة مصر، الطبعة الأولى.
- علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، هيئة الإعجاز العلمي، الناشر: مطابع العالم الإسلامي،
- العلم الحديث حجة للإنسان أم عليه، د. عبدالله عبدالرحيم العبادي، الناشر: دار الثقافة، ١٩٨٥م.
- علم المقاصد الشرعية، نور الدين الخادمي، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، الناشر: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.
- فتح القدير، الشوكاني، الناشر: دار الكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر.
- فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، الناشر: دار الفكر، بيروت.
- الفيزياء للجميع، لاندوا، ترجمة وتحقيق: داود المنير، دار مير للطباعة، ١٩٧٨م.
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، الناشر: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٥م.
- القرآن إعجازه يتعاظم، شاكر عبدالجبار، الناشر: مطبعة الحوادث، بغداد، ١٩٨٥م.
- القرآن والإعجاز العلمي، د. عبدالستار حامد، الأهلية للنشر والتوزيع، الأولى، ٢٠٠٩م.
- القرآن والتفسير العصري، د. بنت الشاطئ، الناشر: دار المعارف، مصر.

- القرآن وعالم الحيوان، د. عبدالرحمن محمد حامد، الناشر: الدار السودانية للكتب، الخرطوم.
- القرآن يفك لغز الأرض، شاكر عبدالجبار، الناشر: مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٨٥م.
- الكشاف، الزمخشري، الناشر: دار المعرفة.
- الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الكفوي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.
- كواكب المجموعة الشمسية، سناء مصطفى عبيد، الناشر: دار المعارف.
- كوكبنا النابض بالحياة، محد سعيد النعناعي، الناشر: دار النهضة، مصر.
- الكون بين العلم والدين، د. محمد جمال الدين الفندي، مطابع الأهرام التجارية، ١٩٧٢م.
- الكون والإعجاز العلمي للقرآن، د. منصور محمد حسب النبي، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩١م.
- اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.
- لسان العرب، ابن منظور، الناشر: دار صادر بيروت، الطبعة الأولى.
- لغة القرآن: دراسة توثيقية فنية، أحمد مختار عمر، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.
- اللغة والمجتمع رأي ومنهج، د. محمود السعران، الناشر: دار إحياء الكتب العربية.
- مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت.
- مجالس التذكير في حديث البشير النذير، عبدالحميد بن باديس، الناشر: مطبوعات وزارة الشئون الدينية، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- مجلة الإعجاز العلمي، هيئة الإعجاز العلمي، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد ١٤٠، يوليو ١٩٩٥م.
- محاسن التأويل، القاسمي، الناشر: عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٧م.
- المحصول، الرازي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م.

- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- المخصَّص، ابن سيده، الناشر: دار صادر للطباعة والنشر.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٩٩٠م.
- مسند أبي يعلى، أبو يعلى الموصلي، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الحموي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت.
- مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة، د. ناطق محمد جواد النعيمي، إصدار جامعة الموصل.
- المعارف الكونية بين العلم والدين، نخبة من علماء الفكر الإسلامي المعاصر، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.
- المعارف الكونية بين العلم والقرآن، د. منصور محمد حسب النبي، الناشر: دار المعارف.
- المعجزة القرآنية: الإعجاز العلمي والغيبي، محمد حسن هيتو، الناشر: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م.
- المعجزة القرآنية، بديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالح، الناشر: دار الرشيد، بغداد، ١٩٩٠.
- معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض.
- معجم المؤلفين، عمر كحالة، الناشر: مكتبة المثنى، بيروت.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، الناشر: دار الدعوة.
- معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي، الناشر: دار النفائس، ١٩٨٨م.
- مفاتيح الغيب، الرازي، الناشر: دار الفكر، ١٩٨١م.

- مفتاح العلوم، السكاكي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، الناشر: دار العلم، ٢٠٠٩م.
- المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، الناشر: مكتبة الشروق الدولية.
- ملامح كونية في القرآن، شاكر عبدالجبار، مكتبة الشرق الجديد، ١٩٨٥م.
- من إشارات العلوم في القرآن، عبدالعزيز سيد الأهل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧م.
- من الإعجاز الإلهي، أ.د. عبدالمحسن العبادي، المكتبة الأكاديمية.
- من آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، الناشر: دار المعرفة.
- من روائع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. عاطف المليجي، الناشر: النهار للنشر.
- من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٩م.
- مناهج التفسير واتجاهاته، دراسة مقارنة في مناهج تفسير القرآن الكريم، محمد علي الرضائي الأصفهاني، الناشر: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة الثالثة، ٢٠١١م.
- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، طبعة القاهرة.
- المنخول من تعليقات الأصول، أبو حامد الغزالي، الناشر: دار الفكر المعاصر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨م.
- المنظار الهندسي للقرآن الكريم، د. خالد فائق العبيدي، الناشر: دار المسيرة للنشر، عمان، الأردن، ٢٠٠١م.
- الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، الناشر: دار ابن عفان، الأولى، ١٩٩٧م.

- نظرة علمية للكتب السماوية، د. فاروق الشيخ نجم العبدلي، الناشر: دار الكتب والوثائق، بغداد، ٢٠٠٠م.
- نظرية السياق القرآني، دراسة تأصيلية دلالية نقدية، د. المثنى عبدالفتاح محمود، الناشر: دار وائل للنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

❁ ❁ ❁